عبد الوهاب مطاوع

حكايات شارعنا

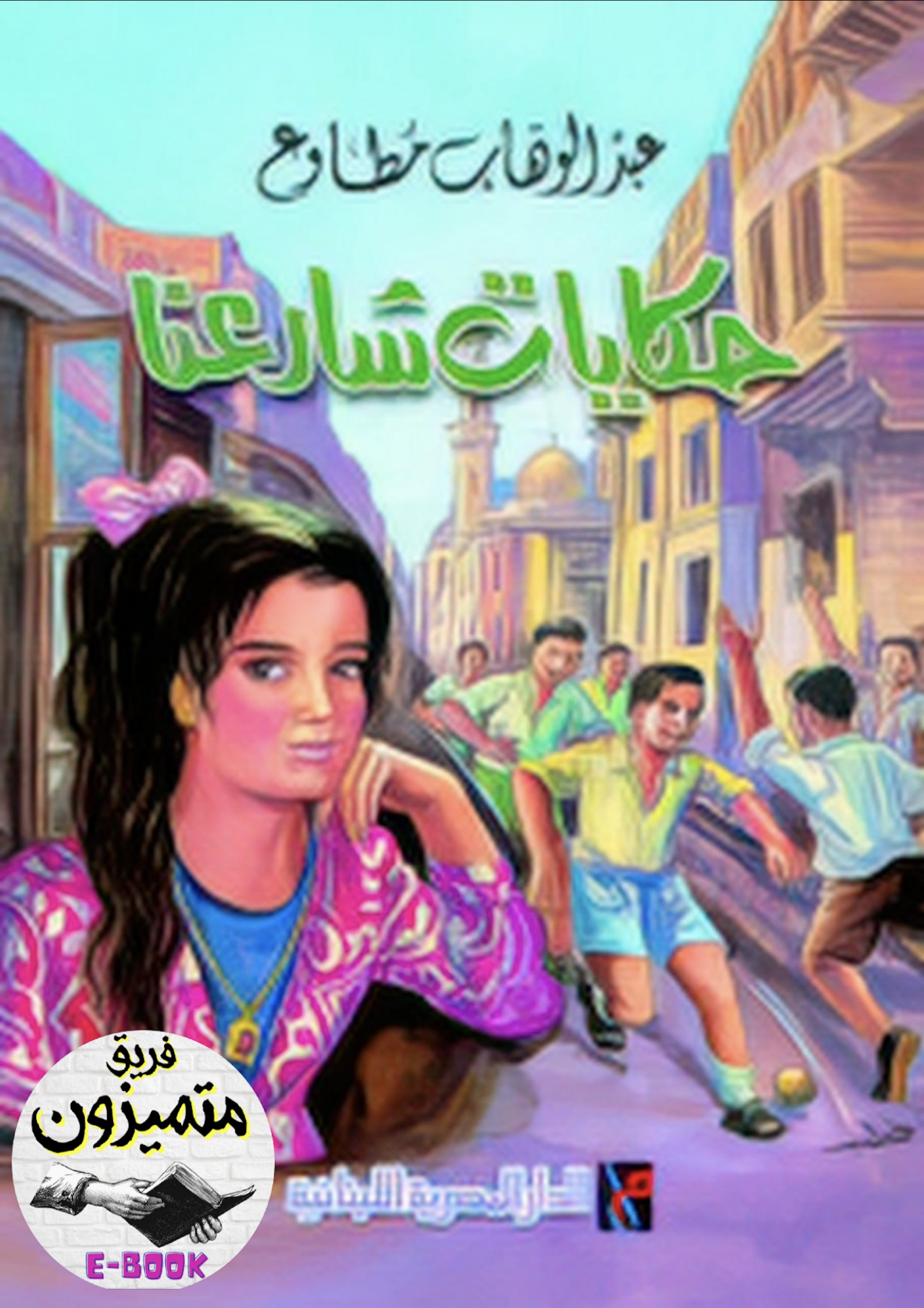

فريق متميزون
E-BOOK

الدار المصرية اللبنانية

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب النادر:

كلمه مهمة:

هذا العمل (تحويل كتاب: حكايات شارعنا... للكاتب عبدالوهاب مطاوع إلى صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

كتب مجمعة لمقالات الراحل
عبد الوهاب مطاوع

حكايات شارعنا

عبدالوهاب مطاوع

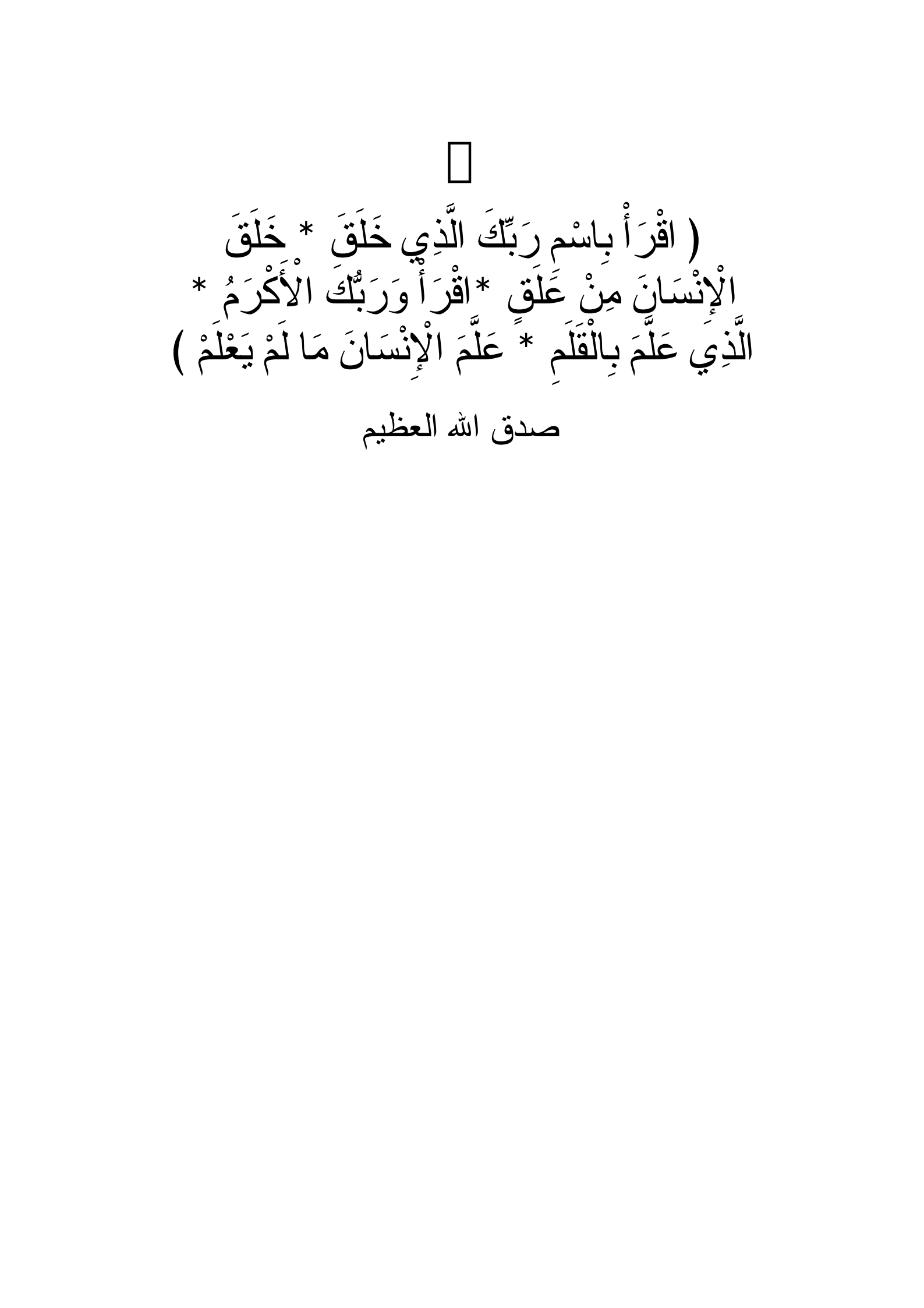

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ
الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ *اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ *
الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)

صدق الله العظيم

حكايات شارعنا..

هذه بعض حكايات شارعنا القديم في إحدى مدن الأقاليم، حيث نشأت وامتزجت بترابه وشاركت في شئونه خلال مرحلة الطفولة.. أسترجعها الآن من الذاكرة المجهدة وأستعيد معها بعض ملامح شخوصها الغائمة في مخيلتي.. وأتأمل ما كان من أمرهم وأمر شارعنا وأمري معهم.. لعلك ترى فيها صورة لعصر مضى.. وجيل قاربت شمس حياته على المغيب.

عبد الوهاب مطاوع

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عن الكتاب..

ذكريات الماضي تستهوي الكثيرين من الكتاب والأدباء والشعراء... فهي منبع للإلهام، ومصدر لعديد من المواقف والأحداث والحكايات.

وفي هذا الكتاب يأخذنا الكاتب الكبير الأستاذ عبد الوهاب مطاوع في سياحة ممتعة عبر الزمان والمكان.. ويحكي لنا فيها ثلاثة وثلاثين حكاية تتناول ذكرياته ومصطفى أمين عام ١٩٩٢ عن أيام الطفولة والصبا التي قضاها في مدينة (دسوق) وهي مدينة صغيرة ولكنها شهيرة في دلتا النيل.

وبهذا الأسلوب، السلس الجذاب الذي يتميز به المؤلف نعيش معه تلك الذكريات التي نتعرف فيها عن أحوال الصبيان والبنات الذين عاصرهم أثناء فترة طفولته وصباه، وأحوال وسلوكيات الشخصيات السوية وغير السوية من الكبار، بالاضافة إلى الأحداث والمواقف الإنسانية التي عاصرها المؤلف ومازالت عالقة بذهنه حتى الآن!

الدار المصرية اللبنانية

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الانحناء

أجلس فوق مقعد بجوار مكتب أبي في تجارته.. أتأمل البضائع والبشر والعمال.. أرقب الحمّالين يعملون بهمة في نقل البضائع من المحل إلى عربات اليد الخشبية التي يدفعونها أمامهم بأيديهم.. أو عربات الكارو.. لم تكن عربات النقل الخفيف قد ظهرت بعد فسدَّت الطريق على مثل هذه الوسائل البدائية.. أنظر إلى أبي. وهو منهمك في عمله بحب وإعجاب، أرى يده تكتب أوراقًا صغيرة تعطيها للزبائن، وتقبض النقود، فتضعها في الدرج المقسم إلى خانات..

أتعجب: كيف لا يخطىء في الجمع أو الحساب، رغم ضغط العمل وكثرة الأيدي الممدودة إليه؟!.. بهذه الأوراق الصغيرة يتجه المشترون إلى داخل المحل، فيسلمهم العمال ما هو مكتوب فيها من أشياء ويضعونها أمام المشتري على «رخامة» عريضة تعترض النصف الداخلي من المحل. ثم يراجعون الأشياء المشتراة على الكشف المدونة به قبل التسليم.

معظم المشترين تجار صغار وأصحاب محلات بالقرى المجاورة أو بالمدينة نفسها يشترون سلعهم بسعر الجملة ويبيعونها للمشترين بالقطاعي. من حين لآخر يدق جرس التليفون الأسود العتيق فيرفع أبي السماعة، ويجيب المتكلم وينهمك معه في محادثة تجارية خطيرة، ومن آن إلى آن يقترب أحد المشترين أو المارة من جهاز التليفون الرأسي الكبير، ويقول لأبي: عن إذنك التليفون، فيقول له وهو منهمك في الكتابة: تفضل! فيرفع الرجل السماعة ويجري مكالمة طويلة أو قصيرة ثم ينهيها شاكراً وينصرف إلى حال سبيله، فالمكالمات مجانية، ومن «العار» قبول ثمن المكالمة البسيط من أحد، وإلا عد ذلك عيبا لا يليق بمن يفعله!

وقد يفاجئ المحل زائر يرتدي القبعة وتبدو سحنته أجنبية فيبادر بكلمة التحية باللغة اليونانية: «يا سو»! ويجيبه أبي مبتسماً بنفس الكلمة: «يا سو يا خواجة فلان»! ثم أخلي له مقعدي المجاور للمكتب وأنتقل لمقعد آخر، فيجلس ويفتح حقيبته ويخرج أوراقا منها، وينهمك مع أبي في حديث قصير.. ينتهي دائماً بأن يتسلم الرجل الأجنبي مبلغاً من المال يقوم بعده باهتمام ثم يضعه في حقيبته بحرص، وينصرف مودعاً، وأعرف من طول التجربة أن الخواجة مندوب لإحدى الشركات التجارية الكبرى بالإسكندرية، وأنه قد تلقى خلال زيارته القصيرة طلباً بإرسال كمية جديدة من البضائع، وتسلم قيمة شحنة سابقة أمثاله... يجيئون بالقطار من الإسكندرية في يوم معلوم من كل أسبوع إلى المدينة الصغيرة، فيطوفون على تجارها يحصلون الفواتير السابقة، ويتلقون طلبات الشراء الجديدة، ويعودون بقطار العصر إلى مدينتهم.

من طول العشرة تنشأ بيني وبين بعضهم صداقات، فأحفظ مواعيد مجيئهم، وأتطلع بسرور خفى إلى مداعباتهم اللطيفة والاستمتاع بخفة ظل بعضهم، ويوماً بعد يوم يترسخ لدي الإحساس بجلال أبي «وخطرة شأنه».. وإلا فلماذا يتودد إليه هؤلاء الخواجات ذوو الوجوه البيضاء المحمرة؟! ولماذا يعامله التجار الصغار

من المشترين والعمال بهذا الاحترام؟! غير أن هذا «الجلال» يتعرض ذات يوم إلى هزة عنيفة، إذ أرى أبي ذات مرة وأنا جالس إلى جواره ينتفض قائماً من وراء مكتبه ويتجه إلى باب المحل مهرولاً ليستقبل شيخا لمحه قادماً عن بعد، فنزل عن عتبة المحل إلى الرصيف ليكون في استقباله.. وأراه ينحني في «خنوع» انزعجت له كثيراً على يد الرجل ويقبلها في الطريق العام، والآخر يمسح بيده على رأسه، ووجهه البدري الأبيض يطفح بالبشر، الضياء.. ثم يدخل ولحيته البيضاء تحيط وجهه بما يشبه الهالة من الضياء .. ثم يدخل الشيخ إلى المكتب، وأنا ما زلت جالسًا إلى مقعدي أتأمل الموقف مندهشاً ومستنكراً، ويقول لي أبي في اهتمام: «سلِّم على سيدك»! ويمد الرجل إليَّ يده باسماً، فأمد إليه يدي في تثاقل وأصافحه بغير انحناء ولا تقبيل، فلا يتوقف الرجلان أمام سوء أدبي كثيراً.. وإنما ينشغلان عنه بتبادل التحايا الحارة والابتسامات الصافية والحديث العذب وشرب القهوة، ثم تنتهي زيارة الشيخ الخطير فيصاحبه حتى الرصيف، ويكرر للأسف ـ«مهزلة» الانحناء على يده مقبلاً ومودعاً!

وينصرف الآخر شاكرا، ويرجع أبي إلى مكتبه منتشياً بالانفعال، فلا يلومني لأني لم أقبل يد الرجل التي انحنى عليها مرتين، وإنما يدع لتجربة الأيام أن تعلمني ما لا أعلم.. وأعرف فيما بعد أن الشيخ هو رأس العائلة، وعمه التاجر الكبير الذي تولى رعايته من بعد أبيه ويقوم منه مقام الأب.. وأدرك مع الزمن كم كنت جاهلاً وكنوداً حين لم أسابق أبي إلى يده لتقبيلها والانحناء عليها، لكن الإشارة لا تضيع بالرغم من ذلك في الظلمات، وإنما تتسرب إلى الوجدان بغير أن أدري وتترسخ فيه، وتلقنني أول الدروس في احترام الكبار والعرفان لهم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أيـام السـعـادة

كانت أيام الطفولة اللاهية.. والقلوب الخـاليـة.. والآمال الصغيرة.. متع الحياة تتمثل في إشبع الاحتياجات الغريزية للصغار من مأكل ومشرب وملعب وفراش.. النوم بعمق شديد يتحسر عليه الكبـار الآن ويتمنـون لمحـة منـه.. الصحـو الكاره لمفـارقـة الـفـراش بعد طول مقاومة واستجداء للأهل أن يترفقوا بنا ويدعونا لحالنا ولو انقضى اليـوم كله في النـوم.. الخوف من الظلام والأشباح والعفاريت التي نسمع حكاياتها بقلب خافق ووجل شديد بغيـر أن نراها أو يصادفها أحدنا.

غلمان الشارع يبدو لهم وكأن غاية الحياة الكبرى ومثلها الأعلى إنما يتحققان باللهو بتفان وإخلاص شديد طـوال اليوم من الصباح حتى المساء - ننقطـع - نـحـن أطفـال المدارس عن ألعابهم مرغمين فتـرة الصباح خلال الدراسة.. ونشاركهم ألعابهم بعد الخروج من سجن المدرسة متحسرين على الوقت الثمين الذي «ضاع» داخل أسوارها!

رفقاء الطفولة يبدأون يومهم غلباً بمباراة «مفتوحة» في كرة القدم تبدأ من الصباح، ولا تنتهي إلا مع قدوم الليل أو حدوث طارىء يطلق صفارة نهايتها على غير رغبة منهم تبدأ المباراة كل يوم بتحدٍ مألوف بين اثنين من زعماء الشارع أيهما سوف يهزم الآخر في مباراة الكرة، ويقبل الآخر التحدي ثم يبدأ كل منهما في اختيار أعضاء فريقه، فيقف أحدهما في جانب، ويقف الخصم في الجانب الآخر، ويبدأ كل منهما في اختيار المحظوظين الذين سيشاركونه متعة اللعب والمنافسة، ونقف نحن بين الزعيمين يراودنا الأمل الحسير في أن يقع اختيار أحدهما علينا، فيخيب الأمل في معظم الأحيان، وتجود الأيام بالبهجة المرتقبة في مرات شحيحة.. يختار رئيس كل فريق زملاءه فيهرولون ناحيته فخورين بالاختيار ومبتهجين به.. ويخطئنا نحن في أغلب الأحوال اختيار الزعيمين فنتجرع غصة الحسرة.. ونرجع لمقاعد المتفرجين كالبضاعة البائرة التي لم يشترها أحد.

انتهى التشكيل، لكن اللعب لم يبدأ بعد بسبب المشكلة الأزلية والجدل العقيم حولها.. فأكثر اللاعبين - وفي مقدمتهم الزعيمان - من أبناء البسطاء الذين يسيرون في الأرض حفاة، وقد اكتسبت أقدامهم العارية صلابة أشد من صلابة بعض الأحذية، لكنهم عند كل مباراة يطالبون القلة من معتادي ارتداء الأحذية بخلعها، خوفا على أقدامهم من الإصابة، ويثور الجدل الشديد حول هذه القضية، ويرفض أهل الأحذية خلعها.. وحجتهم في ذلك أنهم لم يتعودوا السير حفاة.. وأن أقدام اللاعبين العارية لا تقل صلابة عن أحذيتهم. ويتمسك أهل الحفاء بمطلبهم إلى ما لا نهاية منوّهين بما تحمله كعوب الأحذية من مسامير حادة يمكن أن تؤذي جلودهم، ويطول الجدل بين الفريقين، إلى أن يحسمه العقلاء بالتوصل لحل وسط يرتضيه الفريقان، فيجبر رئيس كل فريق بعض لاعبيه من أهل الأحذية ممن عرفوا باللعب العنيف على خلع أحذيتهم، ويعفي من ذلك من يشهد له الخصوم

باللعب النظيف البعيد عن العنف، وتنتهي الأزمة بسلام ويبدأ اللعب، فأما المرمى فقطعتان من الحجر تحتسب هدفا الكرة التي تعبر المسافة بينهما.

وأما الجدل الآخر داخل كل فريق فحول مَنْ مِنْ بينهم الذي يقف حارسًا للمرمى، والجميع يريدون أن يشاركوا في «المحاورة» والهجوم ونيل قصب السبق في إحراز الأهداف، ولا يريد أحدهم أن يقف في المرمى فلا يناله من شرف اللعب سوى محاولة صد الكرات وإبعادها عن مرماه.. فضلاً عما يتعرض له دائما من غضب رئيس الفريق كلما دخل فيه هدف وربما اشتط في لومه إذا تكررت الأهداف فينهره أو يسبه فيه هدف سباباً فاحشاً.. أو يصفعه عند الضرورة ويحمله عار التسبب في هزيمة فريقه.

وينتهي الأمر غالبا باستضعاف أقل اللاعبين كفاءة وإرغامه على الوقوف في المرمى بعد التلويح له باستبداله بأحد الواقفين على جانبي الشارع ممن يتلهفون على المشاركة في اللعب، وتنتهي مشكلة حراسة المرمى، ويتهيأ اللاعبون للعب فيرفع كل منهم ذيل جلبابه ويربطه حول وسطه ليتيح لساقيه الرفيعتين حرية الحركة، أما من يرتدون البنطلون القصير مثلنا أو البيجامات، فلا مشكلة لديهم في ذلك، لكنهم لا يختارون غالبا للانضمام للفريق إلا لأسباب قهرية أو طارئة.

وأما الكرة فهي جورب قديم يتبرع به غالباً أحد غير المحظوظين بالاختيار معظم الأحيان، وتم حشوه بالقطن وخياطته على شكل دائري.. وحين ظهرت الكرات المصنوعة من المطاط واجه الرفاق مشكلة «ارتفاع» ثمنها الذي لم يكن يقل عن عشرة قروش، ثم حلت المشكلة ذات يوم بأن تطوعتُ لشراء كرة وقدمتها لزعماء الشارع، وتصورت لغفلتي أن ملكيتي لها سوف ترفع من أسهمي لديهم عند الاختيار، فإذا بالزعماء يثبتون «موضوعية» مبكرة في التفكير ويفصلون بين ملكيتي للكرة، وبين أحقيتي في اللعب ضمن صفوف فريقهم.. فلا يتاح لي اللعب معهم إلا وفقاً لقواعد الاختيار المقررة من قبل وهي الأكفأ.. فالأقل كفاءة، فالأقل.. وهكذا إلى أن يصل الترتيب إليّ في ذيل القائمة!

وأما التحكيم خلال سير المباراة فعلى المشاع، ويشارك فيه رئيسا الفريقين واللاعبون أنفسهم والمتفرجون، ويتوقف سريان أحكامه على قبول الخصم بها، فإذا اختلفوا حول حكم من أحكام اللعب وكثيراً ما كانوا يختلفون فمرده إلى شهادة الشهود من أمثالنا.. وكل رئيس يعرض وجهة نظره ويستحلف الشهود أن يحكموا بالعدل بينهما فيحكم كل منا بما يراه، وتثبت التجربة لنا في وقت مبكر ثقل أمانة القضاء والحكم بالعدل بين الآخرين.. فمن يحكم منا بما يراه العدل والحق يناله من سخط الطرف الآخر عليه الكثير.. وليس بمستبعد أن يطوله رذاذ الاتهام بالممالأة وقلة الذمة، أملاً في أن يرضى عنه من حكم له ويضمه لفريقه بعد حين، ومن يمتنع عن الحكم إشفاقاً على نفسه من الغضب اتهم بالجبن وانعدام الشجاعة الأدبية لنفس الغرض. وفي كل الأحوال فسوف يتوقف اللعب بعض الوقت ثم تحل الأزمة بشكل أو بآخر وتستأنف المباراة من جديد.

وخلال سير اللعب ، قد يستدعي أحد اللاعبين من جانب أهله فينسحب من الملعب كارهاً وراغماً.. وقد يلمح أحدهم أباه مقبلاً من بعيد فيسرع بالفرار قبل أن يضبطه متلبسًا بجريمة اللعب طول النهار بلا فائدة ولا جدوى، فتشرئب أعناقنا نحن من جانب المشاهدين ونتطلع إلى رئيس الفريق الذي خسر أحد لاعبيه نترقب الإشارة السحرية منه، فيشير إلى أحدنا، وينزل سعيداً إلى الملعب ومغبوطاً من الآخرين، ويفاجأ غالبا بأن حارس المرمى الذي أجبر على الوقوف فيه في بداية المباراة على غير إرادته.. قد احتج على رئيسه مطالبا بفرصته العادلة في «المحاورة» بعد طول الوقوف في هذا المركز غير المرموق، ويرضى عنه رئيس الفريق أخيراً ويشير له بالمشاركة في الهجوم، فلا يجد الوافد الجديد مكاناً له إلا بين أحجار المرمى، حيث الخوف كل لحظة من العار.. أو سباب الرئيس ولومه!

وأما وقت اللعب، فليس محدداً بزمن معين.. وإنما يتواصل إلى أن ينسحب أحد الفريقين لأسباب قهرية.. والمباراة «مفتوحة» ينسحب منهما كل من يستدعيه أهله فيحل محله آخر من البدلاء المنتظرين، فلا يصمد للعب من البداية حتى النهاية غالبا سوى رئيسي الفريقين و «النجباء» من أعضائه ممن لا يبحث عنهم ذووهم!

والأصل هو أن تستمر المباراة إلى أن يحل الظلام وتتعذر رؤية الكرة والدفاع عن المرمى.. والاستثناء الذي يتكرر في كثير من الأحيان هو أن تنتهي المبارة لأسباب خارجية طارئة.. كأن تضيق بعض سيدات الشارع بعصيان الأبناء لندائهن عليهم للانسحاب من الفريق والعودة للبيت، فلا تجد إحداهن حلاً لذلك سوى إفساد المباراة عليه وعلى زملائه بإلقاء سيل عارم من الماء من النافذة على ساحة اللعب فيغمر رؤوس اللاعبين وملابسهم ويفرون من المكان ضاحكين أو ساخطين، ويتفرق الصغار بعض الوقت ويلبي نداء الأهل من تجاهله طويلاً استجابة لنداء اللعب، ثم يحل الظلام، ويتجمع الرفاق من جديد بعد فترة الراحة الإجبارية لبدء ألعاب المساء.. وأفضلها عندهم «نطة الإنجليز».. وهي لعبة مشابهة للعبة حصان القفز في الجمباز مع اختلاف بسيط هو أن «الظهر» الذي يقفز اللاعبون من فوقه.. هو ظهر «حصان بشري» من الصغار..

أما بقية ألعاب المساء فكثيرة وجميلة، من بينها «الاستغماية».. والمراهنات المختلفة والتحديات ورواية الحكايات المثيرة وقصص مغامرات رعاة البقر التي تعرض على حلقات مسلسلة في دار العرض الوحيدة بالمدينة، وهي ظاهرة انفرد بها جيلنا عن الأجيال الحالية، حيث اختفت الآن هذه الحلقات المسلسلة من دور السينما وكانت تعرض دائماً قبل الفيلم الرئيسي وتستثير خيالنا بمغامراتها العجيبة وشجاعة بطلها وقدرته على مواجهة الخصوم والفرار من مطارديه الذين يلاحقونه على ظهور الخيل المسرعة، يحاولون قتله بالرصاص وهو منطلق كالسهم فوق حصانه أمامهم، أو يحاولون اصطياده بالحبل الذي يتطاير في الهواء وفى مقدمته «أنشوطة»، إذا أطبقت عليه وسحبها المطاردون ضاع البطل وسقط أسيرا في أيدي من لا يرحمونه، وكان العامة يسمون هذا البطل دائما باسم «الشجيع»؛ وهو تخريج لغوي مبتكر من كلمة الشجاعة.. كما كانت كل حلقة من

هذه الحلقات وأشهرها في جيلنا هي «مغامرات زورو» تنتهي بموقف صعب يتعرض فيه «الشجيع» لخطر داهم وتتوقف الحلقة دون أن تشفي غليلنا وتطمئننا على مصيره، ونتمزق نحن شوقا لمعرفة مصيره، ونعد الأيام الباقية على موعد الذهاب إلى السينما في الخميس التالي لنعرف ما جرى له، ونهرول راجعين للصحاب الذين لم يدخلوا السينما بالبشرى السعيدة بنجاة البطل من ذلك المأزق الخطير الذي تعرض له، وبالخوف أيضا من المأزق الأخطر الذي تعرض له في نهاية الحلقة الجديدة، إلى أن اكتسبنا بعض الخبرة بعالم السينما وأصبح لدينا بعض اليقين بأنه سينجو من الخطر في الحلقة الجديدة كا نجا من السابقة، وأن تعرض البطل للخطر مع نهاية كل حلقة هو أمر مقصود في حد ذاته بهدف الإثارة والتشويق، فأصبحنا نصف في أحاديثنا أي موقف طارئ يواجهه أحدنا، بأنه «قفلة حلقة».. وسوف يجد نهايته المرجوه بعد حين، كما علمتنا الحلقات المسلسلة!

وفي مثل هذه الحكايات والروايات كان الوقت المسحور يمضي بغير أن نشعر به، فلا يكدر صفوه إلا إلحاح الأهل علينا بالعودة إلى البيت وإلا صوت ذلك الرجل من البسطاء الذي كان له ابنان من رفاق الشلة، ويقيم بالدور الأول من بيت قديم من بيوت الشارع، فيخرج إلى النافذة في التاسعة من مساء كل يوم، وكأنما قد ضبط توقيته على «ساعة سويسرية» لا تؤخر ولا تقدم، ثم يهتف منادياً ابنه الأكبر بجملة واحدة لا تتغير كلماتها أبدا وبصوت «أخنف» يثير السخرية قائلاً: «واد صلاح.. إنده جمال وتعال تعش!».

فيكتئب الابن الأكبر ويفارقنا ساحبا شقيقه معه وهو كاره ومشفقا على نفسه من ركلات أبيه وصفعاته القاسية إن تأخر عن تلبية النداء.

فتفقد الجلسة بعض بهجتها، ويتكرر المشهد بتفاصيله نفسها كل ليلة إلى أن يفتح الرجل نافذة بيته ذات مساء في الموعد المقدور ويهم بأن يهتف بالنداء المعهود فيفاجأ قبل أن ينطق بكلمة بكل صغار الشارع يهتفون مقلدين صوته الأخنف ونغمته قائلين في نشيد جماعي عال:

«واد صلاح.. إنده جمال وتعال تعش»!.

وتنفجر الضحكات الصافية من القلوب الخالية ويشاركنا الضحك بعض أهل الشارع من الكبار ويصبح النداء الأخنف المنغوم نشيدا جماعيا من أناشيدنا نعابث به الصغيرين ونروح به عن القلوب كل حين.

وأكتشف أنا لدهشتي في هذه السن الصغيرة أن لدى الأطفال جرأة نفسية عجيبة على تقليد الكبار ومعابثتهم والسخرية منهم في بعض الأحيان، كما أكتشف أيضا حقيقة أخرى من حقائق الحياة هي أن نظام لحياة اليومية عند البسطاء كان يختلف في جيلنا عن نظامها عند أوساط اناس، وأنهم يتناولون وجبة طعامهم الأساسية الساخنة في العشاء ولا يحفلون بطعام الغداء ولا يجتمعون حوله، وقد يقضي أبناؤهم النهار كله في اللعب فلا يتبلغون بغير الخبز والماء إذا اشتد بهم الجوع، فإذا حل المساء بدأت أمهاتهم في طهي طعام العشاء وفاحت روائحه في

الشارع ثم يرجع رب الأسرة للبيت بعد يوم العمل الطويل ويجتمع الأبناء حول المائدة.

أما نحن فقد كانت وجبتنا الأساسية هي طعام الغداء، وكان عشاؤنا خفيفا كطعام الإفطار.

ثم تمضي الأعوام في طريقها المعهود.. وأعرف فيما أعرف من عادات الشعوب أن النظام الغذائي الذي كان البسطاء يتبعونه في حياتهم في جيلنا هو النظام نفسه الذي يتبعه الأوروبيون والأمريكيون واليابانيون في حياتهم الآن، حيث وجبة الطعام الأساسية الساخنة هي وجبة العشاء بعد انتهاء يوم العمل، وحيث لا يحفلون كثيرا بطعام الغداء ويتناولون فيه الوجبات السريعة.. أو «الساندويتش» خلال مهلة الغداء القصيرة بين فترتي العمل.

فأضيف هذه المعلومة الجديدة إلى رصيدي من خبرة الحياة.. وأرجع بها إلى أصولها الأولى في شارعنا القديم، ويتجدد الحنين إليه.. وإلى ذكرياته الجميلة.. وأيامه السعيدة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الاحتفال

في البيت القديم يسري تيار من البهجة لا أعرف أسبابه ومنذ الأصيل تتوافد عليه سيدات العائلة فتستقبلهم أمي وأختي الكبرى بالقبلات والأحضان، ثم لا تمضي دقائق حتى تعلو الضحكات وتعم البهجة المكان.. وفي المطبخ نشاط محموم لإعداد الشاي والقرفة والشربات، أما قمة البهجة بالنسبة لنا نحن الأطفال ففي هذه الأواني الضخمة التي يجري فيها إعداد كميات كبيرة من المهلبية والألماظية والأرز باللبن، والجميع يشاركن في العمل وهن يتضاحكن ويتبادلن الأحاديث البهيجة.. ثم يجتمع شملهن في الصالة الواسعة ويستمتعن بالحلوى والشراب، ثم تغني ذاتُ صوت حَسَن نوعاً غريباً من الغناء، يبدو لي كالحدَاء الذي يحدو به البدو جمالهم في الصحراء.. وألحظ للدهشة أنه يثير في نفسي الشجن أكثر مما يثير فيها الابتهاج.. ويعجز عقلي الصغير عن فهم معنى اسم هذا النوع من الغناء الذي سمعته من أمي أكثر من مرة من قبل ولم أستوعبه، وهو «التحانين»، لكني أرى أثره واضحاً في عيون الجالسات وهي تترقرق بالدمع دون أن يفارق الوجوه الانشراح.. وأعجب لهذا الغناء الحزين الذي يستدر الدمع من العين.. كيف يكون وسيلة للاحتفال بمناسبة بهيجة، أو كيف تنفعل به إحدى الحاضرات فتطلق «زغرودة» طويلة تتجاوب معها الأخريات بالزغاريد والضحكات والدعوات الصالحات، والدمع ما زال يترقرق في العيون؟!.. وتدور أكواب الشربات والشاي والقرفة، وأطباق المهلبية والألماظية من جديد على الحاضرات، ويمضي الوقت في بهجة خالصة بالرغم مما يحيط بالأجواء من ظلال الدموع، ثم نسمع طرقات على الباب الخارجي للبيت، فيعم السكون فجأة أرجاء المكان وتختفي الضحكات والصيحات، ويدخل الدور الأرضي من البيت كوكبة من الرجال يتقدمهم رأس العائلة الشيخ الجليل وبينهم أبي والأعمام وأبناء العم وبقية رجال الأسرة.

ويجتمع الجميع في صالون الدور الأرضي الذي نسميه في لغتنا «غرفة الجلوس»، ويشهد السلم الصاعد إلى الدور العلوي نشاطاً كبيراً في الصعود والهبوط بين الدورين بأكواب الشاي والقرفة وأطباق الحلوى، ونتمتع نحن الأطفال بحرية التنقل بين مجلس النساء في الدور العلوي - الذي ران عليه الهدوء والتحفظ- وبين مجلس الرجال الذين يملأون مقاعد الصالون ويتبادلون الابتسامات والأحاديث الوقورة، وتتجه أنظارهم دائماً إلى قطب المجلس الذي يتصدر المكان ويبدو أنه مصدر الإشعاع فيه وبعد احتساء الشاي والقرفة والاستمتاع بأكل المهلبية والأرز باللبن، يشهد المجلس فجأة نشاطاً جديداً.. إذ ينهض الشيخ الجليل واقفا فينتفض الآخرون واقفين ويصنعون ما يشبه الدائرة.. ثم يبدأ الشيخ الجليل في الترديد بصوت خافت ويرجع الآخرون ترديده بصوت عال.. ويعود الشجن الغامض إلى التسلل إلى نفسي بغير أن أدري له سببا وتلتقط الأذن عبارات منظومة موحية تتردد فيها كلمات: الله.. أحد.. حي.. أكبر.. غفار.. ويستمر الترديد.. ثم تتشابك الأصوات في النهاية في ترديد جماعي شجي يوحي

بقرب الختام، وينتهي بعبارة منغمة ذات إيحاء مميز: «.. وصلى الله على محمد.. صلى الله عليه وسلم».

ويرجع الرجال إلى مقاعدهم منتشين وتهبط «صواني» الشاي والقرفة من جديد إلى الدور الأرضي، ويمضي الوقت في سَمَر لا يعي الفهمُ أكثره! ثم يقف الشيخ الجليل ويقف معه الرجال مرة أخرى وتتكرر العبارات الموحية، والترديد الشجي، والختام المبهج بنفس العبارة الجميلة.

وتتمنى النفس أن يطول الوقت بالمجلس إلى ما لا نهاية، لكن قانون الأشياء يفرض نفسه في النهاية ولا تلبث السيدات أن يبدأن في الانصراف من الدور العلوي.. ولا يلبث الرجال أن يلحقوا بهن بعد قليل.. ويخلو البيت أخيراً من زواره، وتجتمع الأسرة في الدور العلوي، فأرى بقايا الاحتفال الغامض في كل مكان.. وتمضي السنوات قبل أن أعرف أن أسرتي كانت في تلك الليلة ومثيلاتها من الليالي المشابهة تقيم احتفالها الخاص بذكرى المولد النبوي الشريف.. وأن غناء «التحانين» الذي كانت ترددده سيدات الأسرة فيثير الشجن الغامض في نفسي ويستدر الدموع، لم يكن إلا ترجمة عامية لما يمكن أن يسمى بغناء «الحنين» إلى زيارة بيت الله الحرام.. وقبر الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه.. ويتلقى الوجدان في وقت مبكر واحدة من أهم الإشارات الدينية الغامضة التي تستقر فيه وتسهم في تكوينه وتحديد مجراه فيما بعد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الـتـواصـل عـن بـعـد

في نضارة الزهور حين تتفتح لأول مرة، كان «الحب» الذي غزا قلب الفتى الغض والفتاة الصغيرة.

كان كل منها يضطرب بمشاعر جديدة وغريبة.

وبعد المناوشات المبدئية استقر الأمر بينهما وتأججت العواطف وأصبحت وسيلة التواصل بينهما هي اللقاءات الخاطفة وتبادل الرسائل القصيرة، فينتهز الفتى فرصة خلو الطريق في الصباح الباكر من المارة ثم يقترب من فتاته وهي في طريقها للمدرسة ويسلمها على عجل أو يتسلم منها ورقة مطوية ويرجع مبهور الأنفاس منفعلاً، ويقرأ كلمات الرسالة، ويتشمم الورقة المطوية أكثر من مرة. ويلاحق فتاته بنظراته الوالهة كلما أتيحت له الفرصة.

وبعد فترة من تبادل الرسائل واللقاءات الخاطفة التي لا تستغرق دقائق أصبح نظام حياته أن يخرج من مدرسته فيترقب خروج فتاته من مدرستها، ويسعد برؤيتها و «ملاحظتها» خلال الطريق من المدرسة إلى البيت، وبعد فترة أخرى اصطنع المحبان لنفسيهما وسيلة أخرى أكثر فعالية وتأثيرا للتواصل، فلقد اكتشف الفتى خلال وقوفه في مكتبة بشارع المدينة الرئيسي أن في محل الترزي المقابل له مرآة كبيرة تتيح له أن يرى فيها مدخل محل الخردوات المجاور للمكتبة.. فتعجب كيف لم ينتبه من قبل لذلك، وفتاته كثيراً ما تتردد على هذا المحل وتقف في مدخله؛ فيمر هو عليه ذهاباً وإياباً مسترقاً النظر إليها إلى أن ترجع بيتها في سلام..

إنه يستطيع إذا وقف أمام المكتبة منتحلاً أي سبب ووقفت هي في مدخل محل الخردوات، أن يراها في مرآة محل الترزي الكبيرة وأن يتبادل معها الإشارات في سرية ودون أن يخطر في بال أحد أنه يقصدها لأنه «لا يراها» و «لا تراه» وهناك حائل من فترينة محل الخردوات يحجب رؤيتها عنه.

فكتب إليها بالفكرة.. وطلب منها الوقوف كل يوم بمحل الخردوات لمدة ربع ساعة على الأقل في طريق عودتها من المدرسة لكي ينعم بالتطلع إليها خلال المرآة..

ورحبت هي بالفكرة، ومن ذلك الحين يصبح برنامجها اليومي أن ترجع من المدرسة حاملة كتبها؛ فتتوقف في محل الخردوات بعض الوقت ،وقد تشتري شيئا وقد لا تفعل، ثم تقف بمدخله كأنما تتطلع إلى المارة وتتسلى بمراقبة حركة الشارع، فترى فتاها في المرآة ويراها الفتى ويتبادلان الابتسامات والإشارات وكلمات العيون. ويرجع كل منهما إلى بيته سعيدا مشحونا بالمشاعر والأحاسيس.

وتمضي الأيام واللقاء عبر المرأة مستمر بين الحبيبين، ثم يلفت «منظرهما» ذات نظر زميل من زملاء الفتى بالمدرسة، ويلحظ العلاقة غير المرئية بين موقف الاثنين، فيقترب من الفتى ويكتشف السر ويسعد باكتشافه له، فهو محب هو الآخر، ويكتفي بملاحقة فتاته في الطريق بين مدرستها وبيتها، وهذه الوسيلة

الجديدة سوف تتيح له التواصل معها عن بعد إذا توصل مع الفتى إلى ترتيب ملائم، ويرحب الفتى بالمحب الجديد دون تحفظ. والحب يقرب بين المحبين، وتنضم فتاة الوافد الجديد إلى فتاة القلب في موقفها اليومي بمحل الخردوات وينضم فتاها إلى موقفه اليومي أمام المكتبة، ويسعد أصحاب المحل والمكتبة بهذا «الإقبال» الجديد عليها.. وتؤدي لغة العيون والابتسامات دورها الخالد في تعميق التواصل!

وتجري الأيام جريها المعهود وينهي فتى المرأة دراسته بالمدرسة ويلتحق بالجامعة، وتنتقل فتاته إلى مدينة أخرى.. وتنقطع الصلات بينهما بعد. حين.. ثم ينشغل كل منهما بآماله وأحلامه، ويتخذ لنفسه طريقا آخر في الحياة، ويرجع الفتى القديم بعد سنوات عديدة إلى المدينة ذات يوم فيرى رفيق «الوصال عن بعد» وقد أصبح رجلاً ناضجا، واقفا في نفس الموعد تقريبا أمام نفس المكتبة في نفس موقفه السابق حين كان القلب غضا والآمال بكرا، ويبتهج كل منهما برؤية صاحبه بعد فراق السنين ويسأل العائد للمدينة رفيقه القديم عن أحواله.. فيجيبه بأنه قد تزوج قبل سنوات من فتاته تلميذة المدرسة الصغيرة التي كان يتبادل معها الإشارات في نفس هذا الموقف، وأنجب منها طفلين ويعيش سعيدا معها وبها لكنه للأسف قد اعتاد منذ تلك السنين الغابرة عادة تمكنت منه وأصبحت كالآفة أن يتوقف كل يوم تقريبا - صيفا وشتاء - بعد خروجه من عمله أمام هذه المكتبة. ويمضي بعض الوقت يتحدث مع صاحبها الذي أصبح من أقدم أصدقائه. ويتطلع إلى المارة أو تشرد عينه لا إراديا إلى المرآة المقابلة فيرى مدخل محل الخردوات المجاور منعكسا فيها!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

شـيء مـن الألـم

في مقهى الأعيان يجتمع كل مساء الصفوة وأهل الحل والعقد بالمدينة..

ضباط مركز الشرطة مدرسو المدرستين الثانوية والابتدائية.. المحامون.. مهندس البلدية والموظفون.. ناظر الثانوية المهاب وناظر الابتدائية المحترم، أعيان الريف الذين يزورون المدينة لقضاء مصالحهم.. التجار.. إلخ.

يلفت الناظر الجديد أنظارنا بشيئين: بدانته وطيبته الظاهرة من ناحية، وجمال زوجته الصاعق وشبابها بالمقارنة به من ناحية أخرى نراه جالسا في المقهى في دعة وهدوء.. ونرى زوجته في شرفة المسكن القريب تفوح عطرا ونضارة وجمالاً.. يتساءل بعضنا بالفضول المؤدي للمهالك: ترى كم يبلغ فارق العمر بين الزوجين؟ وكيف تزوجت هذه الغادة الحسناء من هذا الكهل البدين مكور الوجه والبطن؟! فلا تظفر بإجابة شافية، غير أن الأيام سرعان ما تجيب عن تساؤلاتنا على نحو مختلف.. إذ نذهب إلى المدرسة ذات يوم فلا نجد الناظر واقفا في موقفه التقليدي بالفناء، وتتطاير إلينا الأخبار أنه لن يرجع للمدرسة مرة أخرى، ونسأل أهل العلم عن سر هذا التطور المفاجيء ولم تجر العادة على نقل الناظر خلال السنة الدراسية..، فتجيئنا الإجابات غامضة. متحفظة لا تشفي الغليل.. ويتحرج البعض الآخر من الإجابة فيلومنا على مجرد السؤال، ويطلب منا أن ندع «الناس» لشئونها.

ويزيد التحفظ والتحرج من الغموض المحيط.

ويرجع إلينا أحدنا بما يثير ذهولنا وإشفاقنا وانزعاجنا في نفس الوقت.. فيقول نقلاً عن أخيه الشاب الذي يقتحم عرين الأعيان ويجالسهم مجالسة الند للند في مقهاهم: إن الناظر قد طلب نقله فجأة في منتصف العام الدراسي بعد أن تفجرت فضيحة لا يستطيع معها استمرار البقاء في المدينة،فلقد رجع ذات مساء قبل موعد عودته الطبيعي من المقهى إلى البيت ففوجيء بوقوف سيارة أمام البيت الذي يقيم فيه.. يجلس فيها 4 شبان، وما أن اقترب من المكان حتى أحاطوا به، فعرف فيهم موظفين ومحاميا وتاجرا من رواد المقهى .. وحيوه وتبادلوا معه حديثا مضطربا يحاولون به تأخير عودته إلى البيت بكل وسيلة.

وشعر هو بذلك فحاول مغادرتهم إلى البيت؛ إلا أن أحدهم كاد يتعامل معه بعنف ليمنعه من ذلك.. فظل الرجل واقفا بينهم في حيرة إلى أن لمح مهندسا شابا يغادر البيت الذي يقيم في إحدى شققه مضطربا، وعندئذ فقط أطلق الشباب الأربعة سراحه.. ورفع هو بصره إلى أعلى ورأى زوجته الشابة في الشرفة ترقب الموقف في هدوء.. فأدرك كل شيء بغير كلام.

وبعد قليل من دخوله مسكنه سمع الجيران أصداء المواجهة الصاخبة بين الزوج الكهل وزوجته الشابة..

وصدمت أسماعهم كلماتها المتحدية.. المكابرة!

فلم يملك الرجل إلا أن يطلقها في ساعته ويمضي ليلته في فندق المدينة حزينا مقهورا، ثم يبرق للوزارة طلبا نقله، ونعرف نحن في مرحلة مبكرة أن في الدنيا آلاما رهيبة.. لاتسببها أمراض الجسم ولا عصا المدرسين أو المربين.. ولا أذى المعتدين على من هم أضعف منهم، على عكس ما كنا نظن حينذاك!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الانتقام

في مقهى الأعيان أيضاً تبدأ وقائع هذه القصة.

كان الزمن زمن انتخابات.. وبالمدينة ثلاثة أو أربعة من المرشحين يتنافسون على الفوز بأصوات الناخبين.. والمنافسة حامية.. والأعيان منقسمون بين تأييد هذا وذاك، وعُمَد القرى المحيطة بالمدينة لهم دور مشهود في حشد الناخبين في صف من يؤيدونه منهم.. والمرشحون يخطبون ودهم ليضمنوا تأييدهم أو على الأقل حسن استقبالهم لهم في قراهم حين يزورونها.. وحول إحدى موائد المقهى كان عدد من الأعيان، وبينهم عمدة إحدى القرى المحيطة، يتحدثون عن الانتخابات، حين اقترب منهم قريب لأحد هؤلاء المرشحين ونهض الجميع مرحبين به وبينهم العمدة.. فما أن يصافحهم حتى يشتبك على الفور في مشادة مع العمدة يتهمه خلالها بتأييد مرشح آخر.. ويدافع الرجل عن نفسه.. لكن الغضب الأحمق يتملك قريب المرشح فجأة فلا يدري الحاضرون به إلا وقد رفع يده وهوى بها على صدغ العمدة!

وذهل الحاضرون .. ثم أفاقوا من الذهول وحالوا بين المعتدي وبين الاستمرار في عدوانه وانهالوا عليه لوما وتقريعا.. في حين كبح المعتدي عليه جماح نفسه.. وتعفف عن الاشتباك بالأيدي مع ا الفتى الأحمق وجلس في مقعده صامتا حزينا.. وراح كل من هم حوله يخففون عنه ويشيدون بحكمته وترفعه عن الدنايا.. ويجمعون على سفاهة المعتدي وحمقه وسوء أدبه.. ويسمع الرجل ما يقال دون أن ينطق بكلمة واحدة.. ووجهه يزداد تضرجا بالانفعال الصامت لحظة بعد أخرى.

ويصبح الحادث حديث الأيام التالية وتجمع أغلبية الآراء على تقدير حكمة المعتدى عليه وقدرته على ضبط النفس، مما حال دون أن تسيل الدماء في المقهى، لكن الأمر لا يخلو من اعتراض بعض ذوي الرؤوس الحامية الذين يعتبرون التسامح مع الحماقة ضعفا لا يليق بمن أراد السيادة!

وتتصاعد حرارة الانتخابات وتشعل الأحداث المثيرة كل يوم انتباهنا فننسى واقعة الصفعة.. ويتوارى الحادث بتوابعه في خضم الأحداث المثيرة.. إلى أن يرجع إلى بؤرة الاهتمام مرة أخرى مرتبطا بحدث جديد، فلقد روى الرواة أن ذلك المرشح بعد أن أمن من ردة فعل العمدة المعتدى عليه قد خرج في موكب بالسيارات يزور القرى المجاورة داعيا لنفسه، فما أن مضى في طريقه بضعة كيلو مترات حتى فوجىء بكمين يقطع عليه الجانبين ورجال ينهالون عليه وعلى مؤيديه وموكبه بالعصى والشوم فتتكسر العظام.. وتسيل الدماء، ويتحول الموكب إلى حطام وينقل الضحايا إلى المستشفى، وليس بينهم من نجا من كسر بليغ أو جرح غائر! وتحقق الشرطة في اتهام المرشح للعمدة بتدبير الحادث انتقاما لكرامته التي امتهنت في واقعة الصفعة.. وينفي الرجل التهمة عن نفسه، مؤكدا للمحقق أنه كان وقت الحادث بين صحبه في مقهى الأعيان بالمدينة، وأن الموضوع قد انتهى في حينه.. ولو كان قد أراد الانتقام لكرامته بالفعل لما انتظر عشرين يوما أو أكثر لكي

يفعل ذلك! ويؤيد الشهود حديث الرجل، فتعجز النيابة عن إثبات الاتهام وتقرر حفظ التحقيق فيه وتقييد الحادث ضد مجهول.

لكن الوجدان الشعبي لا يعترف بقرارات النيابة والشرطة في مثل هذه الأحوال، وإنما يصدر على الفور «قراره» هو باعتبار الحادث انتقاما من جانب العمدة ممن سبق أن اعتدوا عليه أن اعتدوا عليه.. والأعجب أنه وهو يقرر ذلك يستشعر في أعماقه «عدالته» ولا يعترض عليه!

ويقول الراوي الصغير وهو يتوسط حلقتنا معلقا على القصة: إن صمت المجنى عليه إذا صمت قد لا يكون في بعض الأحيان من الضعف ولا من التسامح، وإنما قد يكون انتظارا صبورا للفرصة المناسبة للانتقام المؤثر!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فليكـن

مسجد سيدي إبراهيم الدسوقي هو قبلتنا في شهر رمضان ومستراحنا عند الأصيل بساحته الواسعة الباردة نسبياً في حرارة الصيف وأعمدته العديدة التي تتجمع حولها حلقات الرواد.. ومقصورة ضريح صاحبه.. القطب الصوفي، الذي ينتهى نسبه إلى الإمام الحسن بن على - رضي الله عنهما.

نستعين على مقاومة الجوع والعطش بعد أداء صلاة العصر بمحاولة النوم إلى جوار أحد الأعمدة، أو السمر مع بعض الرفاق، أو الانضام إلى إحدى الحلقات المتناثرة لسماع درس العصر، أو سماع قصيدة من الشعر الصوفي يلقيها أحد طلبة المعهد الديني الابتدائي.. أو في بعض الأحيان قصة قصيرة مستوحاة غالباً من التاريخ الإسلامي - كتبها طالب أزهري آخر، ولم يجد لها «ناشراً» سوى أسماعنا في أصيل رمضان!

طلاب المعهد الديني بالمدينة كلهم من أصول ريفية يجيئون من القرى المجاورة لمدينتي.. فيقيمون في سكني جماعية كل ثلاثة أو أربعة منهم في غرفة بأحد البيوت، ويبدأون كفاحهم المجيد في دراسة العلوم الدينية والأزهرية.. ونسمع «دَوِيّ» مذاكرتهم إذا أقام بعضهم في أحد المساكن المجاورة لبيتنا، وهم غالبا موضع عطف السكان وأصحاب البيت لجهادهم في سبيل العلم، وغربتهم عن ذويهم وهم فتية صغار.

لباسنا نحن تلاميذ المدارس «الأفرنجية» كما كان طلاب الأزهر يتندرون على مدارسنا الابتدائية الحديثة - بعد انتهاء الدراسة هو القميص والبنطلون أو البيجاما، ولغتنا في الظروف العادية: العامية البسيطة وفي ظروف التفاخر والتباهي: العامية المختلطة ببعض مفردات اللغة الإنجليزية التي نتعلمها في المدرسة.. استشعاراً للتميز والأهمية!

أما هم فلباسهم - بعد الدراسة وخلع الكاكولا والعمة هو الجلباب الشبيه بجلباب صبي المقهى البلدي!.. والطاقية.. والشبشب مع تشمير الذراعين استعداداً للوضوء.. ولغتهم في الظروف العادية: العامية المطعمة ببعض عبارات الفصحى، وفي ظروف التباهي والرغبة في التميز: الفصحى المتقعرة بلا أي مناسبة!

وبسبب آفة الرغبة في التميز هذه عرف أحدهم بيننا بـ «لزمة» يكررها في حديثه عند أي جدال أو خلاف مع زميل حول أية مسألة دنيوية أو فكرية.. هي: فليكن!.. ينطقها بكبرياء وأنفة غريبتين، فيكون ذلك فصل القول في موضوع الخلاف! غير أن هذه «اللزمة» اللغوية كادت أن تورده ذات يوم موارد التهلكة.

فلقد كانت الحياة السياسية مضطربة في بلادنا في ذلك الحين، وكانت المظاهرات تخرج من مدارس المدينة والمعهد الديني كثيرا.. فإذا كانت الحكومة رفيقة بالناس تركت التلاميذ الصغار يخرجون إلى الشوارع وينفسون عما في صدورهم، ثم ينصرفون إلى حال سبيلهم. وإذا كانت متشددة، طارد رجال الشرطة هذه

المظاهرات، وقبضوا على زعمائها الصغار.. فيسرع أولياء أمورهم إلى مركز الشرطة لنجدة أبنائهم، واستعطاف الحكومة للإفراج عنهم.

وفي إحدى المرات كانت الأحوال السياسية عصيبة، وخرجت مظاهرات المعهد الديني فاختلطت بمظاهرة المدرسة الثانوية، تحت شعار طريف رفعه زعماء المعهد هو: لا فرق بين طالب وتلميذ، باعتبار أن كلمة «طالب» تنصرف إلى طلبة المعهد وحدهم، وكلمة «تلميذ» شبه الأعجمية تنصرف إلى طلاب المدارس المدنية دون غيرهم!

ووقعت بعض التلفيات الصغيرة في مبنى حكومي، وألقت الشرطة القبض على زعماء المظاهرة، ووجهت إليهم تهمة التخريب.. وكان من بينهم صديقنا صاحب «اللزمة» اللغوية.. وهرول أبوه الرجل الأمي الطيب إلى مركز الشرطة، فقيل له إن ابنه أحيل إلى النيابة، فهرول الأب إلى النيابة واستأذن في الدخول على وكيل النيابة.. ووقف يستعطفه بصوت متهدج، ودمع متحجر في عينيه، أن يترفق بابنه، وألا يضيع مستقبله.. وتأثر وكيل النيابة بمشاعر الأب ووعده خيرا، وقال له: إنها مجرد إجراءات روتينية، وسوف يسأل ابنه عن التهمة الموجهة إليه فينكرها وينتهي الأمر .. ومبالغة في التلطف به استدعى ابنه أمامه، وبدأ التحقيق معه.. فسأله عن تهمة الاشتراك في المظاهرة، فلم ينكرها.. وسأله عن تهمة مشاركته في إحداث التلفيات بالمبنى، فأنكرها.. واستكمالا للتحقيق فقط قال له وكيل النيابة: لكن فلانا من زملائك يقول إنه شاهدك تحطم زجاج المبنى بطوبة.. قالها له بحكم العادة ومتوقعا منه أن ينكر ذلك، فيسأله: وهل بينك وبين فلان هذا خلاف يدعوه إلى أن يقول عنك ذلك.

فيجيبه: نعم.. نحن مختلفان على بعض الأمور.. فينتهي التحقيق ويصرفه إلى حال سبيله.

لكن الشاب ركبته فجأة عنجهيته المألوفة، فإذا به يجيب على سؤال وكيل النيابة قائلاً في كبرياء: فليكن!

وفزع الأب.. الذي كان قبل قليل يستعطف وكيل النائب العام للإفراج عن ابنه، وشعر بأن الخطر يقترب منه بحمقه وعنجهيته.. فلم يشعر بنفسه إلا وهو يخلع حذاءه، ثم ينهال به على رأس ابنه صائحا فيه في غيظ شديد: أهذا وقت «فلتكن» يا ابن ...!

ولم يتمالك وكيل النيابة نفسه من الضحك لغرابة الموقف وعمق المفارقة بين هلع الأب على ابنه، وحمق الابر الذي يكاد أن يورده مورد الخطر.. فيطمئن الأب، ويهدئ من روعه.. ويتجاوز عن إجابة الشاب المتهور، ويطلق سراحه.. وينصرف الأب شاكراً لوكيل النيابة، وداعياً له بالخير.. ويدفع ابنه أمامه وهو يتوعده. وتصبح حكاية «فليكن» هذه نادرة نتندر بها، ومثلاً نرويه عن الحماقة التي أعيت من يداويها!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الحب في شارعنا

يظن الكبار أنهم يستطيعون خداع الصغار والتخفي عنهم بشئونهم العاطفية.. بل واستخدامهم أيضا عند الحاجة في تيسير الاتصال بينهم وبين فتيات القلب المخدرات في بيوتهن غير أن تجربة شارعنا مع الحب والمغامرة العاطفية قد أثبتت لي في زمن مبكر أن للأطفال حاسةً قوية في استشعار النيات المبيتة وراء التصرفات التي تبدو للآخرين بريئة! كما أن لهم أيضاً ولعاً خفياً باكتشاف علاقات الحب وتتبع إشاراته وفضح أسراره!

كان بعض الشباب يأتون إلى شارعنا وقت الأصيل سعياً وراء الحب والمغامرة العاطفية، ويتوددون للصغار الذين يلعبون في الشارع ويفتعلون الأسباب للحديث إليهم.. والاقتراب منهم.. فلا تنجح حيلهم في خداع الصغار.. وتترجم عقولهم الصغيرة هذه المحاولات على الفور إلى معانيها الحقيقية.. وينفرون من هؤلاء الشباب ولا يتجاوبون مع ودهم المزيف، فلا يجد هؤلاء مفراً من مواصلة السير في الشارع إلى نهايته متظاهرين بعبوره في طريقهم إلى شئونهم..

وحين يغادروننا نتهامس نحن بما وراء هذا المرور غير البريء ونتوعد صاحبه بالويل والثبور إذا رجع لعبور الشارع من جديد، ونلفت نظر المستهدفين «بالود المزيف» إلى عدم الاستجابة له لما فيه من «عار» نربأ بهم أن يتورطوا فيه وكان هؤلاء المستهدفون دائماً ممن لهم شقيقات في سن الشباب ويأمل الكبار في مصادقتهم وإهدائهم صورهم عسى أن تقع عليها أنظار الشقيقة المستهدفة، فتنطلق سهام الحب من الصورة الفوتوغرافية التي يتخذ فيها الشاب دائماً وضعاً جانبياً يبرز أفضل وضع لتسريحة شعره.. وتغزو قلب الشقيقة فتستجيب لإشارات الحب التي سيداوم الشاب على إرسالها إليها كلما مر بهذا الشارع وقت الأصيل من كل يوم.

فأما آفاق المغامرة فلقد كانت محدودة للغاية، لكنها بمقاييس العصر كانت اجتراء سافرا على الأعراف والتقاليد لا تحتمله «نخوة» الصغار! وفى أصيل كل يوم سوف يقترب الشاب المغامر من مدخل الشارع مرتديا أفضل ملابسه ومصففا شعره على طريقة «أنور وجدي».. ومستعيناً على تهذيبه بكمية كبيرة من الفازلين تلمع جبهته من أثرها.. ومشذبا شاربه الذي يبدو عند التقليديين كثاً ثقيلاً وعند المجددين من شباب ذلك العصر كخط رفيع على غرار شارب نجم السينما الأمريكية القديم «دوجلاس فيربانكس»، ثم يدخل الشاب الشارع في وقارٍ مصطنع ماشياً ببطء متعمد ليتيح لعينيه فرصة التلصص على نوافذ البيوت مؤملاً أن تكون المحبوبة في نافذة بيتها فيسعده الحظ بالنظر إليها.. وإرسال الإشارات والتحيات التي لا تخفى على عيون الصغار لها، فإذا أسعده الحظ بظهورها فلسوف يبطىء أكثر وأكثر من خطوته ويتلفت حوله محاذرا أن يطلع على سره أحد الكبار، حتى إذا اطمأن إلى تغافلهم عنه رفع يده بحذر ومسح بها على جانب شعره متظاهرا بتسويته.. فتكون تلك «الحركة» هي إشارة التحية يبعث بها من مكنون القلب إلى فتاته المطلة من نافذة بيتها، ولسوف يترقب بعدها بإشفاق رد

فعلها عليها، فإذا أسرعت بالدخول من النافذة وأغلقتها بعنف فلقد باء بالرفض والخيبة.. وإذا صمدت في موقعها فلقد تلقت الإشارة ولم تجد مانعا من قبول التحية، فإن كانت من بطلات الحب والمغامرة فلسوف «تذهله» بأكثر مما يتوقعه منها وترد التحية بمثلها وتمسح على شعرها فيثمل الشاب طربا.. ويحاول بقدر الإمكان أن يطيل فترة عبوره للشارع حتى لا يتجاوز بيت الفتاة وتنقضي النشوة سريعا. وليس بعيدا أن يتلفت حوله فيجد بعض الصغار يلعبون، أو يرمقونه بنظرات غير ودية احتجاجا على عدوانه على حرمة الشارع.. و «أعراض» فتياته.. فيحاول ملاطفتهم.. واختلاق الأسباب للحديث معهم ليفوز ببضع لحظات أخرى من «خمر» الحب والمتعة.. غير أن محاولاته تقابل دائما بروح عدائية من جانب الصغار، فيمضي في طريقه متعلقا بالأمل السعيد في موعد الغد في نفس الوقت ويتميز الصغار غيظا ويرمقون الفتاة «المستهترة» بحنق شديد، وقد يتجرأ عليها بعضهم فيتوعدها بفضح أمرها لدى أبويها وأشقائها الكبار!

أما الشاب المغامر فلسوف يدمن العبور من الشارع كل أصيل كأنما لا يجد طريقا آخر للوصول إلى غايته سواه، وإذا كان من «أهل الفجور» فليس مستبعدا أن يرجع ذات يوم حاملاً في يده باقة صغيرة من الورد يتشممها أو يتظاهر بذلك، في حين أنه - كما يكتشف ذكاؤنا بسرعة - إنما يقبلها ويبعث - ياللوقاحة - بقبلاته إلى المحبوبة من خلالها.. فيغلي الدم في العروق الصغيرة.. ولولا فارق القوة الجسمانية الهائل لصالحه لما منعنا مانع من دعوته للنزال انتصارا لكرامة الشارع المهدرة!

فإذا فاق فجوره كل الحدود فليس من المستبعد أن يحاول إغراء أحد الرفاق الصغار بحمل هذه الباقة الصغيرة إلى المحبوبة، حيث أخفى بحرص قصاصة صغيرة من الورق داخلها.. لكن هيهات أن تنجح ألاعيب المفتونين بشبابهم في خداع «الرجال الصغار» من حماة الشارع والمدافعين عن أعراضه.. ولو كان الإغراء كبيرا!

وإلى هؤلاء الشبان الغزاة كان يتوجه معظم عدائنا وتحفزنا في تلك الأيام البعيدة.. ومن عجب أنني لم أشهد في طفولتي قصصا عاطفية من هذا النوع تكتمل بالزواج، إذ كان كثيرون من شباب ذلك الجيل يفصلون فصلا تعسفيا غير مفهوم بين الحب والزواج، ولقد يقوم أحدهم بمثل هذه المغامرة في «شارعنا» أو في شارع غيرنا ثم يقرر الزواج فيفوض والدته في اختيار عروس مصون له بغير أن يفكر في خطبة من شاغلها بالنظرات ومسح الشعر وتقبيل الورد فترة طويلة!.. كما كانت القصة نفسها قد تتعرض للانتكاس من جانب الفتاة سريعا في أحيان أخرى، إذ لا يلبث أن يطرق بابها خاطب فوض والدته في اختيار عروس له.. فترحب به بلا تردد. وتحتجب عن الظهور في النافذة، وتقبل على حياتها الجديدة بحماس وابتهاج، ونستريح نحن من عبء حماية الآداب العامة في شارعنا والذود عن حرماته.

فإذا سمعنا ذات يوم - ونحن نلعب ألعابنا المعتادة بالشارع- دوي الزغاريد ينطلق من أحد البيوت ترقبنا البهجة الوشيكة التي سنستمتع بكل فصولها بعد قليل

وشهدنا في أيام متوالية الفتاة الموعودة بالسعادة وهي تغادر بيتها مع والدتها، ثم وهما ترجعان محملتين بالمشتريات وقطع القماش.. ويستقبل شارعنا ضيوفا جددا عليه، هم العريس وأفراد أسرته في زيارات معلومة تتخللها زغاريد البهجة والانشراح..

ثم يأتي أحد الأيام الواعدة بالبهجة ونعرف أن أسرة العروس سوف تنقل أثاث العروس اليوم إلى عش الزوجية.. فإذا كانت من ذوى اليسار فلسوف ينقل أثاثها وجهازها في موكب من عربات النقل المكشوفة التي ترص فوقها قطع الأثاث وكل مستلزمات البيت، من المفروشات حتى صينية «القلل»، ولو تطلب الأمر توزيع كل قطعتين من الأثاث على عربة ليكتمل الموكب.. وفي أصيل أحد الأيام سوف نشهد الركب يمضي في الشارع الرئيسي للمدينة تتقدمه فرقة الموسيقى النحاسية في صفين ويتوسطها قائد الفرقة عازف الكلارنيت.. ولسوف نعجب كثيرا حين نرى بين أفراد الفرقة العشرة عددا من الحرافيش والصيّاع الذين لا عمل لهم ولم نعرف عنهم من قبل سابق صلة بالموسيقى.. لكن عجبنا يزول فيما بعد مع التقدم في العمر حين نعرف أن العازفين الحقيقيين في مثل هذه الفرقة لم يكن يزيد عددهم عادة عن أربعة أو خمسة هم الذين يحملون آلات موسيقية حقيقية ويتولون العزف طوال الزفة، أما الباقون فقد استأجرهم صاحب «الفرقة» لقاء 5 قروش، وطلب من كل منهم ارتداء الزي الموحد للفرقة بلونه الكاكي وشرائطه الحمراء على ساقي البنطلون، ثم سلمه آلة نحاسية كبيرة معطلة أو مسدودة وطلب منه التظاهر بالنفخ فيها طوال الموكب لكي يكتمل للفرقة مظهرها الكريم.. ومن هذه النقطة ولد التعبير الشهير الذي يطلق على من يتظاهر بالعمل ولا يعمل فيقال عنه إنه «لابس مزيكة«!

وسواء أكان عدد العازفين الحقيقيين أربعة أم عشرة، فلسوف نصاحب نحن الفرقة سعداء بموسيقاها «الجميلة»، التي عرفنا فيما بعد أنها مسوخ مشوهة لمقطوعات عالمية لـ «موزار» و «باخ» و «بيتهوفن» توارثها أصحاب هذه الفرق عن آبائهم وجدودهم، وأضاف كل جيل منهم إليها مزيدا من النشاز والتشويه حتى لم تعد تربطها بأصلها صلة..

ومن حين لآخر تتوقف الفرقة أمام أحد المقاهي المطلة على الشارع الرئيسي ويستدير قائدها ناحية المقهى فيتبعه بقية أفرادها.. ويقومون بعزف سلام «محمد شايل سيفه» تحية لصاحب المقهى ورواده.. ثم يواصل الموكب السعيد مسيرته إلى غايته المنشودة، ولكم كان يسعدنا أن تتوقف الفرقة أمام مقهى عثمان الذي يقع على رأس شارعنا وتعزف تحيتها للمقهى وصاحبه ورواده؛ فنشعر نحن بأن التحية تشملنا أيضا باعتبارنا من أبناء هذا الشارع المجيد الذي تحييه الفرقة الكبرى في المواكب السعيدة.

وبعد أن يجول الموكب جولته ينتهي به المطاف إلى بيت الزوجية فتنزل السيارات حمولاتها وتختتم الفرقة الموسيقية «جهادها» مع آلاتها الخربة بعزف السلام الملكي القديم، الذي عرفنا أيضا فيما بعد أنه جزء من أوبرا عايدة للموسيقار «فردي».

ثم يكون هذا الموكب بشيرا بقرب البهجة الكبرى بعد يومين أو ثلاثة على الأكثر، إذ نصحو من نومنا ذات يوم فنجد عمال الفراشة ينشطون في إقامة سرادق في عرض الشارع، ورفع الرايات الخضراء التي تمثل العلم المصري القديم عليه، وتعليق الأنوار والزينات، ورصِّ المقاعد في صفوف متوالية على غرار مقاعد المسرح، ثم إقامة المنصة التي ستجلس عليها العروس والفرقة الفنية التي سنحيي «ليلة الحنة»، وهي الليلة التي تسبق الزفاف، وتحتفل بها أسرة العروس في بيتها، ويحتفل بها العريس في بيته.

وفى الموعد المرتقب يمتلىء السرادق بالمدعوين.. ونبحث نحن لأنفسنا عن موطىء قدم فيه.. ثم تهل العروس هابطة من بيتها محاطة بصديقاتها المخلصات وهي ترتدي فستانا فزدقي اللون أو ورديا بنفسجيا، ثم تجلس في المقعد الخصص لها فوق المنصة، وتبدأ فرقة العوالم الشهيرة عملها، ونحن في نشوة بالغة، فتغني «الأسطى طعمة» صاحبة الفرقة ونجمتها المخضرمة، ويغني زوجها عازف البيانو القديم «محمود المزوق»، ولا أدري هل هذا هو اسمه الحقيقي أم أنه قد اكتسبه من حبه للوجاهة وشعره الأسود اللامع بالفازلين؟! وترقص الأسطى «نجية» الإسكندرانية وتغني ويلقى «عبد الباعث » بفكاهاته ومونولوجاته.

وفي غمار هذه النشوة الطاغية نفاجأ بتوقف الموسيقى ومغادرة العروس للمنصة.. ونتساءل في انزعاج عن السبب، فيجيبنا أهل الخبرة بأن العروس لا بد لها من أن ترتدي في حفل ليلة الحنة ثلاث فساتين تستعرض بها ذوقها وأناقتها وقدرتها المالية، ولهذا فقد غادرت الحفل لتغير فستانها وسوف ترجع بعد قليل، وتتحقق النبوءة بالفعل..

ويستأنف الحفل من جديد، وتمضي الليلة كلها في بهجة خالصة حتى الثانية صباحا أو تزيد.

وفي مساء اليوم التالي يتكرر الحفل ويبدأ في نفس موعده في الثامنة مساء، لكننا نلاحظ أن مقعدا خاليا جديدا قد أضيف إلى جوار مقعد العروس.. ونلاحظ أيضا بأسى شديد أن الفرقة الفنية لا تُخلص للغناء والرقص كما ينبغي لها أن تفعل، وإنما تنشغل بجمع «النقوط» أكثر من انشغالها بالغناء، وكأنما تسابق الوقت قبل انتهاء المناسبة، ثم يشتعل السرادق بالزغاريد فجأة، وينبهنا ذوو الخبرة السابقة إلى أن هذه إشارة مؤكدة لوصول العريس إلى الشارع وسط هالة الأصدقاء والأحباب.. ثم لا تلبث أن نسمع هتافاً مدوياً من الأصدقاء والأحباء يحيون به صديقهم قائلين: يحيا العريس.. ويتردد الهتاف الصاخب بحياة العريس كأنه زعيم سياسي أو قائد راجع من معركة مظفرة ويشق الشاب الموعود بالسعادة طريقه إلى المنصة ليشغل المقعد الخالي إلى جوار عروسه فلا تنظر هي ناحيته ولا ترفع إليه بصرها، وتظل «الطرحة» مسدلة على وجهها طوال فترة جلوسه إلى جوارها.. ويزداد نشاط الفرقة الفنية في جمع النقوط قبل أن ينفض الحفل الذي يعرفون جيدا أنه لن يطول كليلة الأمس، ونحزن نحن لأن الغناء يتوقف كل جملة وأخرى لتعلن «العالمة» عن تحية أحد المدعوين للعريس أو أسرة العريس،

ونأمل أن تهدأ هوجة النقوط بعد قليل لكي نستمتع نحن بالغناء والرقص والمونولوجات.. فنفاجأ بالعريس بعد نصف ساعة على الأكثر من وصوله وهو ينهض واقفا، ويدعو عروسه للتحرك فلا تستجيب لدعوته من أول مرة، وتصعد والدتها أو شقيقتها للمنصة وتقيمها من مقعدها كأنما لو تركت لنفسها لما نهضت! ثم تأخذ بذراعها وتشبكها في ذراع العريس الذي يمضي شامخا بين زحام المدعوين إلى الهناء مشيعا بالزغاريد ودقات الدفوف!

وينفض الفرح ولـمّـا تتعد الساعة بعد العاشرة والنصف أو الحادية عشرة مساء، ويبدأ العمال في هدم السرادق وإطفاء الأنوار وإنزال الزينات.. ونحن نتحسر على البهجة التي اختزلت.. والفرحة التي وُئِدت قبل الأوان، ونرجع إلى بيوتنا ونحن نتساءل في مرارة: لماذا تقصر أوقات البهجة دائما في الحياة، وتطول أوقات الأحزان؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الرئيس

انضممت إلى شلة الشارع فوجدت لها «رئيسا» من الغلمان يحظى بما يحظى به كل رئيس من سطوة وهيبة ونفوذ!

ولأنني قد انضممت للحلبة متأخرا فلم أعرف متى تم اختياره للرئاسة ولا ما هي مؤهلاته التي رشحته لها.. ولا هل هو رئيس ديمقراطي «صعد» إلى منصبه بالانتخاب الحر، أم أنه رئيس «أتوقراطي» مستبد نال موقعه بالاغتصاب أو القوة، لكني أحسب الآن أنه قد جاء إلى موقعه بقانون الانتخاب الطبيعي الذي يعطى للسن مكانة كبيرة وللقوة مكانة أعلى..

وكان رئيس شارعنا صبيا توقف عن الدراسة في المرحلة الابتدائية وألحقه أبوه الميكانيكي بالعمل بمحل ترزي، فكان أول ما توقف أمامه عقلي الصغير من تناقضات الحياة، هو كيف يكون «الرئيس» مشغولاً عن رعيته بعمل آخر يحجبه عن مهامه الجليلة في الشارع من الصباح حتى آخر الليل؟

ولماذا لا نراه بيننا حين نحتاج إليه ليدفع عنا عدوان صبيان الشوارع الأخرى حين يشنون علينا غاراتهم؟

وكيف يستقيم الحال.. وهو لا يظهر في مملكته إلا يوم الأحد فقط من كل أسبوع موعد عطلة المحل الذي يعمل به.. وإلا في بعض الأمسيات المتأخرة حين يغلق المحل أبوابه مبكرا بعض الشيء؟

لكن هذه التساؤلات لم تخرج عن حدود عقلي الصغير.. وسلمت بما يسلم له به الجميع من مهابة واحترام.. ولاحظت أنه حين يجلس بين «رعيته» على رصيف الشارع في المساء تحيط به المهابة من كل جانب، فلا يجرؤ أحد على مخالفة أوامره وتعليماته إذا اقترح ممارسة إحدى الألعاب الجماعية، أو قرر أمرا من أمور الشلة.. كمخاصمة فلان لخروجه على قانون الشارع أو مصالحة آخر، وكانت اللعبة المفضلة لديه كلما حظى الأتباع منه بجلسة صفاء واستمتاع في المساء هي لعبة «الجوال»، فيأمر بإحضار جوال قديم من بيت أحد الأتباع، ويأمر أحد الغلمان بالدخول فيه، وآخر بربط الجوال عليه والوقوف به في نهر الشارع متظاهرا بمحاولة حمله كأنه بعض المتاع.. فيفشل في ذلك بالطبع ويستنجد بأول عابر للطريق أن يساعده في حمل الجوال، ويقبل الرجل على مساعدته بحسن نية، وما أن يهم برفع الجوال ليضعه فوق ظهر الصبي حتى يصرخ الصبي المختفي داخله.. ويتحرك، فيفزع الرجل فزعا شديدا.. ويستغرق الصغار في الضحك لفزعه وارتباكه ويكتشف الرجل اللعبة السخيفة فيتراوح رد فعله بين الضحك «الشيطنة» هؤلاء الأولاد والمضي إلى حال سبيله، وبين السخط على عبثهم به وضرب أو سب من غرر به.. وسب الملاعين الآخرين الذين يرقبون الموقف عن قرب وهم في قمة السعادة والانشراح!

وتدور الأيام دورتها المألوفة ويزداد «الرئيس» انشغالا بعمله وحياته عن شئون موقعه، وغيابا عنه.. ولا يغني عن غيابه وجود «وكيل» له من بين الصبيان.. ينقل إليه شئون الرعية وأنباء بذور التمرد التي بدأت تظهر بينهم لكثرة الغياب، وكشرارة الحريق التي تندلع فجأة بغير مقدمات اندلعت أيضا شرارة الثورة على الرئيس المهمل لواجباته فيجتمع الرفاق بغير تدبير سابق ذات أصيل في الشارع ويتفقون على خلع هذا الرئيس اللاهي، وتنصيب آخر بدلا منه.. وتهديهم عقولهم الصغيرة إلى أن أفضل وسيلة لإعلان قرارهم «التاريخي» هذا هو أن يصطفوا جميعا في طابور طويل يمضي إلى المحل الذي يجلس على بابه الرئيس المخلوع منحنيا على بنطلون يخيطه، ثم يهتفون خلال مرورهم به بسقوطه، وحياة الرئيس الجديد، ويفعلون ذلك بالفعل بعد أن تخلصوا من تهيبهم له.. وشقوا عصا الطاعة له.. ويرفع الرئيس المعزول رأسه عن البنطلون وينظر إلى الأطفال العابرين أمامه، في ازدراء واستخفاف، ثم يرجع إلى عمله من جديد في هدوء.

ونرجع نحن إلى الشارع منفعلين بالإثارة الشديدة التي شعرنا بها ونحن نعلن سقوط دولة التسيب والإهمال وقيام دولة العدل والإخلاص في شارعنا.

ولا ندرك خلال ابتهاجنا الشديد بنجاح الثورة وتوفيقها، أن الرئيس السابق كان قد تخطى منذ زمن دور الطفولة.. ودخل بداية مرحلة الشباب.. وأنه لم يعد يعنيه من أمرنا أو أمر شارعنا شيئا كثيرا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الـمـهـرجـان

ننام مجهدين وقد تلوثت أصابعنا بالأصباغ المختلفة بالرغم من التحذير والتهديد.. فلقد أصررنا نحن الصغار على أن نشترك في صبغ البيض بالألوان الزاهية في المساء استعدادا لاحتفال شم النسيم في الصباح التالي.. وبعد شيء من المغالبة للأرق بسبب تعجلنا انقشاع الظلام وظهور الصباح نستغرق في النوم متعبين.. وننهض على غير العادة عند أول نداء، نرتدي ملابس جديدة.. ونحصل على «العيدية» ونتجه إلى موقع الاحتفال التقليدي بشم النسيم.. في عيد الفطر وعيد الأضحى نتجه إلى ساحة العيد بجوار المسجد الإبراهيمي.. أما في شم النسيم فإننا نتجه إلى «الجزيرة» وإلى «النيل»، فثمة جزيرة في مجرى «النهر» أمام مدينتنا يتجه إليها أبناء المدينة عبر الكوبري القديم منذ الصباح الباكر.. وعلى شاطئها يتجمعون، ويتناولون إفطار شم النسيم التقليدي من البيض والخس والملانة ويشاهدون المهرجان الذي لا تعرفه المدينة إلا في هذا اليوم وحده كل سنة.. فمنذ الصباح الباكر يأتي إلى المكان شجعان المدينة من المغامرين الذين لا يشق لهم غبار ولا يخشون الهلاك، فيخلعون ملابسهم، مكتفين بالشورت الداخلي أو المايوه.. ثم يصعدون إلى الكوبري وسط تشجيع الحاضرين ويتسلق الواحد منهم بجسارة متناهية «درابزين» الكوبري ويتدلى بساقيه في اتجاه الماء.. ثم يقفز فجأة من ارتفاع الكوبري في مياه النهر فتنخلع قلوبنا نحن من الإثارة والترقب والخوف.. ونسمع لارتطامه بالماء صوتا مدويا، ويختفي جسمه كاملاً تحت سطح النهر صانعاً في مكان الهبوط دوائر متسعة من المياه، فنحبس نحن أنفاسنا.. ونركز أنظارنا على صفحة النهر إلى أن تهتز دوائر المياه مرة أخرى ويبرز رأس السباح الشجاع من تحت الماء فنطمئن إلى أن القفزة قد نجحت بسلام، وتلتهب أكفنا بالتصفيق وحناجرنا بالصياح، ويخرج البطل من الماء محاطاً بالإكبار والإجلال فيستريح قليلاً ويتسلى بمشاهدة قفزات الآخرين، ثم يصعد إلى الكوبري ويكرر المعجزة مرة أخرى، وهكذا طيلة صباح يوم المهرجان وحتى اقتراب الغروب، وعودتنا منفعلين ومشحونين بالمتعة والإثارة إلى بيوتنا. ونتساءل نحن عن هؤلاء الأبطال الذين يقدمون لنا هذا العرض المجاني المثير كل سنة.. فنعرف أنهم جميعا حرفيون وباعة متجولون وبسطاء لم يتلقوا أي تدريب على الغطس.. ولا على كيفية تجنب أخطار الارتطام بالماء، وإنما تعلموا السباحة بالممارسة في نهر النيل، ثم شاهدوا الأبطال السابقين يقفزون من فوق الكوبري إلى النيل في شم النسيم فخاضوا التجربة بجسارة .. واكتسبوا الخبرة بالمخاطرة!

ونعرف أيضا أن آباء معظم هؤلاء الأبطال لا يرضون عن تعريضهم لأنفسهم للخطر على هذا النحو، وأنهم يحظرون عليهم الاشتراك في هذا المهرجان، لكن الأبطال يتحايلون على أوامر الآباء لإسعادنا، وقد يتلقى بعضهم العقاب أو اللوم بعد العودة من المهرجان!

وبين قائمة الأشاوس والأبطال تثبت في الذاكرة صورة واحد منهم كان جسمه فارعاً وشاربه كثاً ومظهره مهيباً وجرأته عالية.. فكان أول من أقدم على القفز في

الماء بالرأس والذراعين إلى أسفل وليس بالقدمين، كما كان كل زملائه يفعلون.. فاستحق منا الإعجاب والإشادة، ومع كل قفزة جريئة له كانت مكانته تتدعم في نفوسنا.. ومحبته والإعجاب به يستقران في القلوب، حتى ليصبح المثل الأعلى لنا جميعا في القوة والمهابة والاحترام، ويصبح من ينال منه لفتة اهتمام أو نظرة محسودا من الآخرين، وكلما غادر الماء بعد قفزة ناجحة التف حوله الصغار معجبين ومشجعين وهو ينظر إليهم من عل ولا يرد على أحاديثهم.. فنصاحبه في زفة إلى الكوبري استعدادا للقفزة التالية.. ولقد فعلنا ذات يوم وهو يتقدمنا في جسارة وكبرياء.. وقبل أن يهم بارتقاء «الدرابزين» فوجئنا ببطلنا الجسور يصرخ في فزع: أبويا!، ثم يطلق ساقيه للريح، وهو لا يرتدي شيئًا إلا المايوه الصوفي المتهرىء.. ونرى رجلا يحمل عصا غليظة قادما من الاتجاه الآخر وهو يسب ويشتم الولد الصائع الضائع الذي لم يفلح في مهنة، ويفرح فقط بالتفاف «العيال» حوله وتعريض نفسه للخطر كل حين!

وتتلقى صورة البطل الجسور في مخيلتنا طعنة دامية، لكننا للعجب لا نفقد احترامنا له ولا نكف عن الإعجاب به حين يشارك في المهرجان التالي خفية من وراء أبيه!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الحرية

نتطلع نحن الصغار إلى شباب المدينة الصغيرة التي نشأنا فيها بالإعجاب والانبهار، نلحظ كبرياءهم وترفعهم عن مخالطة الصغار من أمثالنا، فلا يقلل ذلك من إعجابنا بهم أو من تطلعنا لأن نصبح مثلهم ذات يوم، مع وعد صادق منا بألا نترفع على الصغار وألا نردهم عن الاقتراب منا إذا رغبوا في صداقتنا! نراهم عند الأصيل يتنزهون نزهتهم اليومية في الصيف فيمشون في جماعات من ثلاثة أو أربعة أشخاص يلف أحدهم سلسلة على إصبعه يميناً ويساراً من باب التسلية.

ويرتدي الآخر قميصاً من المربعات، ويضع الثالث نظارة طبية تضفي عليه هيبة يبدو معها وكأنه عالم يجري أخطر الأبحاث، فأما شعورهم جميعا فطويلة وغارقة في الفازلين ومصففة على طريقة أنور وجدي، وأما أحاديثهم فعن الجامعة.. والكليات.. وزميلات الدراسة.. والبعثات الخارجية التي يطمحون للفوز بها بعد الحصول على الشهادات، وأفلام السينما.. ومباريات الكرة.

وأما النزهة نفسها فليست غالباً سوى مشوار طويل من المشي فوق كوبري المدينة القديم ذهابا وإيابا.. ولم يكن نادرا أن ينحني أحدهم على الأرض لالتقاط السلسلة التي يتلهى بها فينسدل شعره الطويل على وجهه ثم يعتدل في وقفته ويرجع برأسه إلى الخلف بقوة ليعيد شعره إلى طبيعته كما كان يفعل أنور وجدي في الأفلام القديمة.. ونرقب نحن هذه الحركة بإعجاب وتتجدد حسرتنا لحرماننا القهري من نعمة الشعر الطويل التي لا يسمح بها الأهل إلا للشباب الموعودين بالمستقبل المشرق. أما نحن الصغار فمهما نرجو حلاق الأسرة أن يدع شعرنا على حاله، فلن يستجيب للرجاء، ولن يفعل إلا ما أمر به من الأهل وهو تقصير الشعر إلى أقصى حد ممكن، وبسبب هذا التعنت تصبح حرية، إطلاق شعر الرأس إحدى الحريات التي نطالب بها ونناضل لانتزاعها، كما تناضل الشعوب المقهورة لانتزاع استقلالها من المحتلين!

ومن بين شباب المدينة تتوقف أنظارنا عند شاب ترشحه ملامحه البلقانية وبشرته البيضاء لأن يكون أجنبيا، لكن حديثه وسلوكه يدرجانه بين أبناء البلد الذين لا تستطيع التفرقة بين أحدهم وغيره في الشكل واللغة والملامح.. ثم، أنه بالفعل يوناني ينتمي لأسرة يونانية مقيمة في مدينتنا وتمتلك لوكاندة فيها.. ونراه بين قرنائه من الشباب يتكلم العامية المصرية بأفضل مما يتكلمها بعض أهل المدينة.. ويزداد إعجابنا به حين يتكلم اللغة الفصحى فيحرص على مخارج الحروف السليمة، وقواعد النحو.. وسلامة الإعراب ونتساءل متعجبين كيف أجاد لغتنا القومية كل هذه الإجادة وهو الذي قد نشأ في بيت لغته اليومية هي اليونانية؟! فتجيء الأخبار بأن تفوقه في اللغة هو أيضا مثار إعجاب أساتذته بالمدرسة الثانوية.. وأن بعضهم قد نصحه بأن يلتحق بعد الحصول على الثانوية العامة بقسم اللغة العربية بكلية آداب الإسكندرية، ونضحك نحن للنصيحة ولا نعلق عليها أملاً كبيراً.

ثم تظهر نتائج الثانوية العامة بعد حين وينجح الشاب اليوناني فيها.. ويبدأ شباب المدينة في الاستعداد للهجرة للإسكندرية للالتحاق بجامعتها، ويذهب معهم صديقهم اليوناني، فإذا به يستجيب لنصيحة أساتذته بالمدرسة الثانوية ويلتحق بكلية الآداب قسم اللغة العربية، ويتفوق في دراسته ويحصل على شهادته في اللغة بتقدير متفوق!

و يصبح حب هذا الفتى للغة العربية وتفوقه فيها رافداً إضافياً يصب في نهر الحب الكبير للغتنا القومية في أعماقنا.. وحافزاً آخر للحفاوة بها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الحذاء

في الجزء الجنوبي من شارعنا تقع بعض المنازل الشعبية الفقيرة التي يقيم فيها أهلها البسطاء من الباعة والحرفيين، وفى طفولتنا يعجب الخيال بمن تتوافر فيهم سمات البطولة بغض النظر عن مواقعهم الاجتماعية من أهل الشارع، فلا عجب أن تستأثر بإعجابنا بعض شخصيات الجنوب الفقير من شارعنا لشهامة بادية عليهم أو قوة جسدية يتمتعون بها، ربما بأكثر مما قد نعجب أحيانا ببعض شخصيات «الشمال» - الذين يتميزون بالجاه والمال - ولا تغرينا شخصياتهم النمطية بالانبهار بهم. ومن بين شخصيات الجنوب من البسطاء الذاكرة شخصية رجل قصير كان يحترف مهنة بائدة انقرضت تصمد في الآن شارعنا، وربما من كل الشوارع، هي مهنة السقاء، ولقد كانت عدته لممارسة مهنته هي جاكيت جلدية رثة يرتديها فوق جلبابه المشمور دوما فوق الركبتين ليتيح لساقيه العاريتين حرية الحركة بلا عناء، يحمل عليها قربة كبيرة سوداء فتحمي ملابسه من الابتلال، ثم حمار يمتطيه مع قربته، فيحصل على الماء النظيف من حنفية عمومية في أحد أنحاء المدينة، ويطوف على البيوت التي لم تدخلها شبكة من الشرب بعد، فيزودها بحاجتها من المياه من قربته لقاء أجر شهري معلوم، فإذا بلغ بحماره أحد هذه البيوت نزل عن حماره وأنزل قربته ثم انحنى على رجل الحمار الأمامية فرفعها وعلقها في حبل يتدلى من البردعة، ليمنعه من الحركة تماما كما يفعل قائد السيارة حين يشد فرملة اليد عن مغادرته لها ليمنعها من الانزلاق، ثم يدخل البيت المقصود حاملا قربته ويؤدي مهمته الجليلة ويرجع بعد قليل ليمتطي حماره ويتجه به إلى بيت آخر.

غير أن عبث الصغار وميلهم الغريزي للمشاغبة كان يفسدعليه في كثير من الأحيان خطة العمل، فلقد اعتاد بعض صغار الشارع أن يراقبوا هذا الرجل عن بعد وهو يؤدي عمله، فما أن ينزل عن حماره ويعلق رجله ويدخل أحد البيوت حتى يتسللوا إلى الحمار ويفكوا رجله المعلقة ويسرعوا بالفرار، فما أن يتحرر الحمار من قيده حتى يهرول عائدا وحده وبغير دليل إلى بيت صاحبه، الذي يحفظ الطريق إليه عن ظهر قلب مهما تبعد به المسافات، ويخرج صاحبه من البيت الذي كان فيه فلا يجد «سيارته» في انتظاره ويدرك على الفور أن شياطين الشارع الصغار قد حرروا حماره من قيده، فينطلق لسانه لاعنا ومتوعدا، ويرجع إلى بيته ليستعيد الحمار وهو يوزع شتائمه وتهديداته على الجميع بما فيهم الحمار نفسه، ونتكتم نحن الضحكات الشريرة بجهد جهيد حين يعبر بنا طريق مكفهرا ومرددا وعيده الشهير بأن يضرب من يكتشف أنه هو، الذي فك رجل الحمار «بالجزمة»، هو وكل من يتصدى للدفاع عنه!.

وتجف القلوب الصغيرة وجلا بالرغم من سرورها الخفي بالموقف العصيب، ويعبر بنا الرجل عائداً بحماره بعد قليل لمواصلة عمله وهو ينظر إلينا شزراً ولسانه يواصل إطلاق قذائفه، ويكرر وعيده المرعب بالضرب بالحذاء عند اكتشاف الجاني، وهو وعيد ألفت الأذن سماعه في هذه المناسبة وفي غيرها من

الناسبات العديدة، كأن يتشابك طفل من أبناء الشارع مع ابن لهذا السقاء في شأن من شئون الصغار المألوفة فيهرول الأب قادما اتجاه بيته متوعدا بأن يضرب الطفل المعتدي «بالجزمة» هو ومن يعترض طريقه في ذلك، فيسرع الطفل بالفرار، ويرجع السقا بابنه وهو يهدر بالسباب والوعيد.

شيء واحد فقط كان يخدش جلال هذا الوعيد المخيف ويحيله في أسماعنا إلى بهجة خفية نجاهد جهاد الأبطال لكيلا تظهر آثارها على الوجوه، فتعرضنا لما لا نحبه ونرضاه، وهو أن هذا السقا كان من أهل الحفاء ولم ير ذات يوم منذ مولده وإلى مماته وهو يرتدي أي حذاء من أي نوع، كما لم يكن من أبنائه كبارا وصغارا أو من زوجته وبناته من عرف الحذاء ذات يوم في ذلك الزمن السعيد!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أحـلام الـقـوة

خيال الأطفال يتسم دائماً بالجموح والقوة الجسدية تلوح للجميع حلم سعيد بعيد المنال.. من ناله فقد نال المهابة والجلال!

وفي جلساتنا في الشارع القديم يتبارى البعض في إلهاب خيالنا بما يحكونه عن قدرات خارقة للآخرين، ويحسم البعض مساجلاتنا دائما بإعلان أ «الملك» - وكنا في عصر الملكية - يستطيع أن يفعل ما يعجز عنه الجميع من معجزات، فيستطيع أن يعبر النيل من ضفته الشرقية إلى ضفته الغربية في قفزة واحدة، ويستطيع أن يلتهم وحده خروفاً مشوياً، وأن يرفع سيارة بيده اليمنى وحدها.. والجميع يصدقون وينبهرون! ولا عجب في ذلك ولا اعتراض، فهو «الملك» الذي يحكم البلاد والقادر وحده على كل ما يعجز خيالنا عن تصوره، ولو لم يكن كذلك لما استحق عرش البلاد، ولا فاز في تقديرنا باحترام الآخرين!

ويشطح الخيال بأحدنا فيروي لنا أنه قد ظهر رجل في مدينة مجاورة يطير بغير جناحين ويحط حيث يشاء، ويروي لنا آخر معركة يقسم أنه شاهدها بعينيه في سوق المدينة، كال فيها أحد الرجال العظام اللكمات المزلزلة لعشرة من الأشرار حاولوا الاعتداء عليه، فتصدى لهم وحده وصعقهم بضرباته المروعة.. حتى أرداهم جميعاً أرضاً وجلس إلى مقعده في المقهى، يدخن «شيشته» مطمئناً.. ويرقب سيارة الإسعاف وهي تنقل ضحاياه للمستشفى لمعالجتهم من جراحهم!

ويشتعل خيالي بهذه البطولة الخارقة وأقسم على من روى لي قصتها بأن يصطحبني معه لرؤية هذا البطل المغوار الذي ينبغي له أن يكون المثل الأعلى لأمثالنا من الضعفاء.. ويتردد الراوي طويلاً في الاستجابة: غير أنه يقبل في النهاية، ويقودني إلى مقهى بالشارع الرئيسي للمدينة.

ويشير إلى أحد الجالسين فيه ويقول: إنه هو الفتوة الذي أردى من اعترضوا طريقه.. وأنظر.. فأرى رجلاً نحيلاً طويلاً يرتدي جلباباً «مقلماً»، ويصفف شعره بـ «البريانتين» ولا تبدو عليه سمات القوة أو المهابة، لكن أسطورة البطولة تطغى على كل الشكوك.. ومن ذلك اليوم أضعه - بالرغم من ضعفه الجسماني الظاهر -في مكان مرموق خيالي، وأدعو في صلاتي أن يهبني الله بعض قوته لأستخدمها الدفاع عن نفسي عند الحاجة، وفي نصرة الضعفاء ضد المعتدين وأعاهد النفس. إن استجاب الله لدعائي الملهوف - ألا أستخدم قوتي إلا في الخير- غير أن الأيام تمضي دون أن يبدو أي أثر للاستجابة للابتهال الحار، ثم أمر يوماً بالمقهى فأرى - للدهشة - «البطل» جالساً على الأرض واضعاً يده على جنبه الأيسر، ويبكي مولولاً ومن حوله بعض الرجال يطالبونه بالتماسك ويعيبون عليه هذا النواح الخليق بالنساء! وأقترب من الجمع محاولاً فهم ما جرى للبطل؛ فأسمع أحد الواقفين يقول في استياء: إنه ولد «خِرِع».. يبكي لبعض المغص الذي ألم به!

وتتلقى أسطورة البطولة في خيالي ضربة قاصمة، وتضيع آمالي في اكتساب بعض قوة «المثل الأعلى» لتكون عُدَّتي يوم يكون النزال!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ذات الرداء الأحمـر

تمر بنا، ونحن منهمكون في اللعب الجماعي، فترمقنا بفضول، طفلة في الثامنة من عمرها، نتوقف عن اللعب خشية أن تصيبها الكرة التي تتقاذفها أقدامنا.. فتنظر إلينا في امتنان صامت ويخيل إليّ أنها تخصني دون الرفاق بنظرتها المعبرة، ثم تبتعد عنا فأتبعها بنظرة محرومة، وأنا أتساءل: هل كانت نظرة عابرة أم تعبيراً صامتاً عن تجاوب صريح مع من يخفق قلبه الصغير في صمت كلما رآها؟

ويتكرر مرورها بنا كل يوم.. ويتكرر إيقاف اللعب، احتراما للفاتنة الصغيرة التي تظهر دائماً في فستان أحمر اللون، كأنها لا تملك غيره، وتتكرر النظرة التي تثير التساؤلات الحائرة في نفسي، دون أن أتلقى أي إشارة ترجح الآمال، أو تخيب الظنون وبمضي الأيام تميل النفس المتلهفة على ما يسعدها إلى الاقتناع بـ «خصوصية» الاهتمام ويعرف القلب البكر نوعاً غامضاً من المشاعر لم يجربه من قبل ويختلف عن بقية الأحاسيس الأخرى.

وفي المساء حين أضع رأسي، كعادتي كل ليلة، على حجر أمي، لأسمع الحكايات الجميلة.. وآسف كل مرة أن خطفني النوم قبل أن أعرف نهايتها.. أجدني على غير العادة متنبهاً لسماع الحكايات، بغير أن يغلبني النوم في بداية القصة، كما كان الحال.. وأجدني أتراوح بين الانتباه للقصة، والشرود عنها واسترجاع صورة الفاتنة الصغيرة فيتساءل العقل الصغير: أيكون هذا هو «سهر» المحبين الذين يجافيهم النوم، كما تتحدث عنه أغاني الراديو؟! وتنطوي النفس على سرها الخطير فلا تبوح به لأحد، وبدلاً من أن تقرب الأيام بين الطرفين كما يأمل القلب الحسير - تنقطع الفاتنة الصغيرة - فجأة عن الظهور في موعدها اليومي.. وأتلفت حولي باحثاً عنها، فلا يظهر لها أثر. وبعد معاناة صامتة طويلة اقترح على الرفاق نقل المباراة إلى الطرف الجنوبي من الشارع، حيث يقع مسكن فتاة القلب.. ويقاوم الرفاق الفكرة طويلاً، ثم يخضعون في النهاية دون أن يعرفوا دوافعي السرية لهذا الاقتراح.. وأمارس اللعب في الموقع الجديد شارد الذهن مشتت الانتباه بين واجباتي كلاعب كرة، ومراقبة مدخل البيت الذي تقيم فيه الساحرة الصغيرة، على أمل أن أراها خارجة منه.. وأتلقى لوم الرفاق، لذهولي عن الخصم الذي مرق بجواري وهدد مرمانا وأنا شارد عنه.. ويمضي وقت المباراة الطويل دون أي بادرة تطمئن القلب الحزين.. ويمضي اليوم بعد اليوم، دون أن يجدي نقل المباراة شيئاً في معرفة مصير ذات الرداء الأحمر، ثم أتجرأ ذات يوم، فأسأل سيدة من سكان البيت عنها متذرعًا بحجة واهية.. ويجيئني الجواب كالصدمة. إن أسرتها قد انتقلت إلى حي آخر بعيد.. ولأيام تالية أرتاد ذلك الحي الآخر البعيد، متلمساً رؤية فتاة القلب في أحد شوارعه.. فلا أجد لها أثراً.. وأرجع من جولاتي الخائبة مكدود القلب والوجدان، فأتعلق بالأمل الوحيد في أن ترجع أسرة الفتاة ذات يوم إلى الحي القديم، لزيارة جيرانها السابقين.. لكن الأيام تمضي بلا جديد،

فيتساءل العقل الصغير: وأين الوفاء؟ وأين الرعاية لمن كانوا شركاء في بيت واحد؟

ويطول «سهري» في المساء مستمعاً لـ «نهايات» الحكايات المألوفة كل ليلة، ثم تضعف الذكرى بمرور الأيام.. وتبرأ الجراح شيئاً فشيئاً ويجرف النسيان كل شيء.

وتمضي الأعوام فألتحق بالمدرسة الابتدائية، ثم أنتقل منها إلى المدرسة الإعدادية، وأرى ذات يوم سيارة أجرة قديمة متهالكة تقف أمام منزل الخياطة في مطلع الشارع، وأعرف من إخوتي أن ثمة عروسًا في بيت الخياطة تتسلم فستان زفافها الأبيض.. وأنها سوف ترتديه، وتستكمل زينتها في بيت الخياطة.. ثم تخرج لتركب السيارة المتهالكة إلى حفل زفافها البسيط. وأقف في الشرفة مع الإخوة أترقب لحظة خروج أ العروس وانطلاق الزغاريد.. ولا يمضي وقت طويل حتى تعلن الزغاريد عن مقدم العروس ووراءها صويحباتها، وتخرج العروس فلا أرى وجهها المحاط برؤوس الصديقات.. لكنها تلتفت إلى الخلف، قبل أن تركب السيارة لترد تحية صديقاتها، فأرى وجهها لأول مرة.. وتلمع الذكرى القديمة فجأة كالبرق الخاطف، إن عروس اليوم هي نفسها طفلة الأمس ذات الرداء الأحمر، لم يتغير شيء كثير في ملامح وجهها.. لكن جسمها قد نما وتفجر أنوثة وحيوية.. وأستغرق لحظات في ذكريات الأمس البعيد ومشاعر خفيفة من الشجن الغامض تتسلل إلى القلب، وأشعر بشيء من الرثاء للنفس.. ليس بسبب القصة التي لم تكتمل، وإنما بسبب آخر عجيب.. هو تأملي لِقِصَر الرحلة بالنسبة للفتاة من مرحلة الطفولة إلى مرحلة الأنوثة والزواج.. في حين يبدو الطريق طويلاً، وبلا نهاية، لمن كان من الفتيان!

وينشغل كل من حولي بمتابعة موكب العروس.. ووداع الصديقات.. وأشرد أنا بعيداً عن كل شيء.. وفي خاطري هاتف يقول: ما أسرع ما تمضي أحداث الحياة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

موسم الابتهاج

كنا نترقب مجيئه في موعده السنوي على أحرٍّ من الجمر، ونستطلع مقدماته وبشائره بنفس اللهفة التي يستطلع بها القوم هلال شهر رمضان استعداداً لبدء الصوم.

فلقد كان في المدينة الصغيرة التي نشأت فيها ساحة واسعة تخصص كل عام للاحتفالات المصاحبة لمولد العارف بالله سيدي إبراهيم الدسوقي، فإلى جوار الاحتفالات الدينية، وخيام الطرق الصوفية التي تقام فيها الأذكار وتمتد الموائد بالقرب من المسجد، كانت هذه الساحة تختص بالجانب الترفيهي من احتفالات المولد.. وتدخل بنا كل عام إلى عالم سحري خلاب.

ففيها تنصب فرق السيرك الأربع التي تأتي للمدينة كل سنة خيامها، وتتلألأ أنوارها، وتزأر وحوشها، وتصدح فرقها الموسيقية، وتقدم ألعابها العجيبة.. وفيها كذلك تنتشر تلك المسارح الغنائية المتواضعة التي تقدم عروضاً للمنوعات الغنائية، ومن أشهرها بالنسبة لنا، مسرح هدى صابر، وحمام العطار، وحسين المليجي وغيرهم.. وإلى جوارها «تلعلع» ميكروفونات العروض السحرية القصيرة في مسارح لا تعدو أن تكون محلات صغيرة مستأجرة كمحلات البقالة والعطارة تقام فيها منصة خشبية.. يتراص الجمهور أمامها ليشاهد العرض واقفاً.. ولا يزيد عدده على 20 أو 25 مشاهداً في كل مرة.. يدفع كل منهم قرشاً واحداً أو قرشين ليستمتع بمشاهدة عرض لا يستغرق أكثر من 20 دقيقة لأعجوبة من أعاجيب ذلك الزمان السعيد، كالفتاة الكهربائية التي يوصل مقدم العرض التيار الكهربائي إلى جسمها أمامنا فلا تتأثر به!.. ويضع على ذراعيها «لمبة نيون» فتضيء على الفور!.. أو تلك الأعجوبة الأخرى التي تثير فينا - إلى جانب الانبهار - الإشفاق، وتندى عيوننا الصغيرة بالدمع تعاطفاً معها.. وهي تلك «الرأس» البشرية الموضوعة على مائدة أمامنا، ويكشف لنا مقدم العرض غطاء المائدة فلا نجد لها جسداً.. ويحدثنا صاحب الرأس عن «مأساته» المؤلمة وكيف أنه كان ابناً عاقاً لوالدته فغضبت عليه ودعت ربها أن ينتقم منه، فقضى عليه بأن يحيا رأساً بلا جسد، ليكون عبرة للآخرين.. ويبلغ بنا التأثر مبلغه ونسأل صاحب الرأس: كيف يأكل وهو بلا ذراعين وكيف ينام؟ وكيف.. وكيف؟.. وكيف؟.. ويجيبنا على أسئلتنا راجياً منا ألا نغضب أبوينا لكيلا نلقى سوء المصير، وطالباً منا أن ندعو له بالصبر على بلواه.. ونخرج من العرض متعجبين ومتألمين، فلا يمضي بنا العمر طويلاً حتى ندرك أن هذه الرأس التي طالما استدرت دموعنا لم تكن سوى حيلة تستخدم فيها المرايات وخداع البصر لإيهامنا أنها بلا جسد!

ومع ذلك تبقى ذكراها أثيرة في النفوس.. برغم الخداع وابتزاز العواطف، أو تلك الفتاة المعذبة التي يأمرها أمامنا الساحر الجبار بالدخول إلى صندوق كبير فتمتثل لأمره.. وما أن يغلقه عليها حتى يغرس في الصندوق السيوف الباترة من كل جانب فتئن لوقعها أحشاؤنا ونحن نتخيل غرسها في جسدها.. ثم تنتهي الفقرة بين صيحات الخوف والإشفاق بظهور الفتاة سالمة لم تسل منها قطرة دم واحدة!

أو ذلك الكائن العجيب «شيكو» المصنوع من البلاستيك على هيئة قزم.. والذي يحمله صاحبه على ذراعه ويتحاور معه، فيرد عليه القزم بصوت غريب، ويدير عينيه غامزاً لنا وساخراً من بلاهة صاحبه ونضحك نحن من قلوبنا ونتساءل: كيف يتكلم وهو قزم من البلاستيك؟! إلى أن نكتشف بعد مرور السنين أن صاحبه هو: نفسه من كان يسأل ويجيب.. مستخدماً في ذلك نبرة صوت باطنية لا يلحظ المشاهدون صدورها عنه!

وغير ذلك من الألعاب والعروض المثيرة.. التي تفتح أمامنا عالماً سحرياً غريباً، وتشغل فكرنا وأحاديثنا مع رفاق الشارع لفترات طويلة بعد انقضاء احتفالات المولد..

ولقد تجولنا بإعجابنا وانبهارنا بكل الألعاب والعروض واستقر الانبهار حول المتعة الجامعة لكل أسباب البهجة والسرور، وهو السيرك.. فمن قبل أن يبدأ عروضه الموسمية في ساحة مدينتنا كنا نترقب وصوله ونستطلع أخباره من العالمين ببواطن الأمور من الكبار.. ونحزن حتى النخاع إذا قيل لنا إن إحدى فرق السيرك الأربع التي تقدم عروضها بمدينتنا كل سنة سوف تتخلف هذا العام عن الحضور ونسعد بالبشرى حين يزفها إلينا أحد رفاقنا الذي تقع مدرسته الابتدائية بالقرب من محطة قطار الدلتا حين يقول لنا إنه شاهد معدات أحد هذه السيركات يفرغها العمال من قطار البضائع الصغير التابع لسكة حديد الدلتا.. ونخرج من مدرستنا كل يوم بعد ذلك إلى الساحة لنستطلع الأخبار، ونشاهد مراحل بناء السيرك وشد قوائمه وتركيب مدرجاته الخشبية ورفع خيمته الملونة فوقه.. مرحلة بعد مرحلة.. وقلوبنا تخفق تعجلاً للبهجة القريبة، وخلال وقت قصير يكون السيرك قد اكتملت هيئته وتلألأت أنواره.. وطاف بشوارع المدينة مهرجه الأساسي سائراً فوق قائمين طويلين خشبيين يغطيها سرواله الطويل الملون فيبدو للآخرين عملاقاً طوله 3 أمتار.. وهو يعلن عن بدء عروض السيرك العجيبة.

وكعادتنا نحن الصغار فلقد انقسمنا بعد فترة الاستكشاف الأولى لعروض فرق السيرك الأربع بين منحاز لهذا السيرك ومشجع بقوة لذاك دون غيره من الفرق.. وكل منا يدافع عن اختياره ويعدد الأسباب التي تدعوه لتفضيله على غيره، وكنت لسبب لم أدركه جيداً وقتها من أنصار سيرك الحاج محمد علي الحلو.. وأرى أنه الأحق بالإعجاب الأكبر من سيرك أخيه الحاج حسن الحلو، أو سيرك عاكف، أو سيرك الحاج حنفي الذي كان يثير فينا الإحساس بالرثاء له لتواضع عروضه بالمقارنة بعروض الفرق الثلاث الأخرى.. وأما لماذا فضلت أنا وبعض الرفاق الصغار سيرك الحاج محمد الحلو فلأننا قد رأينا خلال مناقشاتنا «الخطيرة» حول هذه القضية أن جزءاً أساسياً من عوامل الجذب للجمهور التي يعتمد عليها سيرك حسن الحلو هو جمال نجمة الفرقة محاسن الحلو.. إلى جانب عرض الفيل الذي ينفرد به دون الفرق الأخرى.. في حين يعتمد سيرك عاكف على جمال بناته وجاذبيتهن، في حين لا يعتمد سيرك محمد الحلو سوى على الفن وحده.. وحماس نجومه.. ومعظمهم من أبناء صاحب السيرك نفسه!

وهكذا استقر الإعجاب الخالص على هذا السيرك.. وترسخت في الأعماق في مرحلة مبكرة من العمر بذور إعلاء قيمة العمل المجرد والجدية فيه بغير الاعتماد على وسائل جانبية للنجاح!

فأما ليلة الذهاب إلى سيرك الحلو فإن أصداء بهجتها ما زالت تسري في الوجدان عند التذكر.. ومن قبل الأصيل كنا نتهيأ للمتعة الوشيكة فنتعجل الساعات لكي تنقضى ويجيء الموعد المنتظر.. وقبيل التاسعة مساء نكون قد شققنا طريقنا في الزحام المتجمع أمام مدخل السيرك واشترينا - ونحن ثلاثة من الإخوة الصغار - تذكرتين فقط، ثمن كل منها ستة قروش.. فيما أذكر، بدعوى أن أصغرنا دون السن التي تستوجب دخوله بتذكرة ثالثة، واجتزنا الباب الذي يفصل بين عالمنا الروتيني وعالم السحر والجمال.. وسلمنا التذكرتين للعامل الواقف أمام كومة من المقاعد الخشبية فيعطينا مقعدين، نجرهما إلى أحد البنوارات المحيطة بحلبة السيرك، ونستشعر الرهبة حين نجد في البنوار المجاور لنا مأمور مركز الشرطة وكبار ضباطه بملابسهم الرسمية.. وفى البنوارات الأخرى كبار أعيان المدينة ونجومها البارزين.. ونشعر بالألفة حين ندير رؤوسنا إلى المدرجات الخشبية المطلة علينا من كل جانب فنراها مزدحمة عن آخرها بأصحاب الجلاليب البيضاء.. أبناء القرى المجاورة وعمال المدينة وحرافيشها.. فهؤلاء من سوف تتضاعف بهجة الليلة بمشاغباتهم لنجم الفرقة الكوميدي قرب نهاية السهرة ..

ننظر باهتمام إلى المنصة الخشبية التي تعلو مدخل فناني السيرك إلى الحلبة نترقب ظهور فرقة الموسيقى - النحاسية الصغيرة التي ستصاحب العرض بعزفها، ونطمئن إلى اقتراب المتعة حين نرى عازفيها .. الثلاثة قد استقروا فوق مقاعدهم وبدأوا في تجربة الآلات .. لحظات قصيرة ثم ينفخ العازفون في أبواقهم وينسال السحر والخيال أمام ناظرينا!

يا إلهي!.. ما هذه المتعة الثمينة التي نرتوي بها ونحن نشاهد فقرات هذا العرض الساحر؟!.. ساعات وساعات ونحن مشدودون إلى هذه الحلبة الدائرية.. نستمتع بمشاهدة الألعاب الغريبة من أكروبات.. ومشي فوق السلك.. ودوران في الهواء قبل السقوط في كرسي من الحديد يحمله أكبر أبناء صاحب السيرك فوق رأسه.. وترويض للأسود داخل قفص حديدي يجري بناؤه أمامنا قبل العرض وإزالته بعده، والحارس يطوف حول القفص شاهراً مسدسه المخيف تحسباً لأية مفاجأة من جانب الوحوش الضارية.. يتخلل كل ذلك فقرات لنجوم صغار في مثل أعمارنا.. لكن هيهات أن ننجح نحن في أداء بعض ما يؤدونه من حركات رياضية صعبة، أو يقومون به من ركوب للدراجة ذات العجلة الواحدة ولا مقعد لها!.. فإذا كنت قد غبطت أحداً في طفولتي وتمنيت لنفسي مثل ما أوتي من حظ سعيد في الحياة.. فلقد كانوا هؤلاء النجوم الصغار من لاعبي السيرك بملابسهم الفضية الزاهية، وجرأتهم على مواجهة الجمهور واستمتاعهم بتصفيقه وإعجابه.. وقد ظللت على انبهاري بهم وإكباري لهم إلى أن رأيت بعد ذلك أحد هؤلاء النجوم الصغار يؤدي تدريباً نهارياً في حلبة السيرك، ولمست كم العذاب والمعاناة التي يتكبدها لإتقان هذه الألعاب.. وأبوه لا يتعامل معه كلما أخطأ في حركة إلا بالعصا

الموجعة التي تفجر صرخاته مع السباب الفاحش.. فحمدت الله على خلوي من المواهب ورضيت بأقداري التي حرمتني من تصفيق الجماهير!

كما تتخلله أيضاً فقرات لتدريب الكلاب، وفقرات غنائية جميلة منها فقرة فكاهية برع في أدائها أحد أبناء «الحلو» واسمه «حسن» وكان يقوم فيها بغناء أشهر الأغاني العاطفية وقتها بكلمات فكاهية تثير ضحكاتنا وإعجابنا.. ناهيك عن فقرة مهرج السيرك الذي يظهر من حين لآخر فينتزع ضحكاتنا الصافية.. وفقرة الحمار الجامح الذي يأبى أن يركبه أحد.. ويفشل عمال السيرك في الإمساك به، ويتطايرون أمامه قافزين فوق المتفرجين لكيلا يدهمهم في طريقه ويصرع الجميع.. قبل أن يغادر الحلبة منتصرا في كبرياء!

ثم يجيء مسك الختام قرب الواحدة بعد منتصف الليل، ويدخل عمال السيرك فيفرشون على أرضية الحلبة المتربة بساطاً رثاً لا نكاد نعرف لونه من كم التراب الذي يغطيه.. فيكون ذلك إيذاناً ببدء «الرواية» كما كنا نسميها في ذلك الحين.. وهي مسرحية قصيرة تستغرق نحو الساعة يقوم بأدائها نجوم السيرك الذين أدوا من قبل أخطر الألعاب ويحل فيها هذا البساط القديم محل ستارة المسرح.. فإذا فرشت على الأرض فلقد بدأ الفصل الأول، وإذا طويت فلقد انتهى الفصل وهكذا..

ومن هذه «الرواية» سوف تتسلل إلى نفوسنا بذور حب المسرح والأدب والتاريخ.. وفيها سوف نشاهد هارون الرشيد يتداول مع وزيره جعفر البرمكي في شئون الدولة.. قبل أن يقلب له ظهر المِجَن وينكبه وينكب معه البرامكة كلهم.. أو نرى ملكاً مهموماً بأمر ابنته الشابة العليلة التي عجز الأطباء عن علاجها، وتأبى البوح بهمها لأحد، وترفض كل من يتقدم إليها طالباً يدها لأن قلبها أسير لحب فتى أمين.. لكنه للأسف من أسرة نازعت أباها في ملكه ذات يوم ولا أمل في قبوله إذا هو تقدم طالباً يدها.. وسواء أكانت أحداث الرواية تجري في عصر الرشيد أو في العصور الوسطى أو الحديثة فلسوف يختار البطل الشاب الذي يقوم بدوره دائما أكبر أبناء صاحب السيرك واسمه محمد كأبيه لحظة مناسبة لكي يطلق فيها رصاصة من مسدسه في الأرض فتنخلع لها قلوبنا الصغيرة ويتطاير شررها الناري أمام أعيننا ويثير فينا الرعب! أما كيف يتسق تاريخيا استخدام المسدس في نزاع بين هارون الرشيد وأحد خصومه ولم يكن قد اخترع بعد.. فليس ذلك مما كان يعني البطل الذي يهمه فقط أن يحقق أقصى درجة من الانفعال الدرامي بالحدث بين المشاهدين!.. وأما الشخصية الأخرى التي لا بد من وجودها في الرواية سواء أكانت تاريخية أو عصرية.. فهي شخصية التابع الظريف للأمير أو البطل، والذي يصبغ وجهه ويديه باللون الأسود ويتكلم باللهجة النوبية أو السودانية، ويمثل الفطرة الشعبية في الإخلاص للبطل والمسالمة والتحذير من الاندفاع.. ومن خيانة المنافقين الذين يبدون أمام البطل غير ما يبطنون.. إلخ وحول هذه الشخصية سوف تتركز بهجة الرواية جنباً إلى جنب مع مغزاها الأخلاقي ودروسها المستفادة.. فمنذ اللحظة الأولى التي يظهر فيها التابع الظريف يبدأ جمهور المدرجات الخشبية من العمال والحرافيش و مشاغبته والتعقيب على كل جملة ينطق بها بالصفير الهازل.. فيخرج عن أحداث الرواية ويوجه كلامه إلى

المتفرج الساخر، ويلذعه بنكتة أو قافية ساخرة تفجر ضحكات الجمهور من الأعماق ويكون أعلاهم ضحكا هو هذا المتفرج نفسه!.. ثم يرجع التابع إلى أحداث الرواية، فما إن ينطق بعبارة أخرى حتى يلاحقه متفرج آخر بالصفير الساخر.. فيرد عله بقفشة لاذعة.. وهكذا طوال ظهوره في حلبة المسرح.. إلى أن يشبع الجمهور من الضحك والقفشات ويتهيأ لمتابعة ختام الرولة الأخلاقي.. فيشهد اندحار الشر، وانتصار الخير والحب والوفاء والمثل العليا.. وينطوي بساط الرواية، وينحني الأبطال أمامنا رداً على تحينا الحارة التي تلهب أكفنا الصغيرة.. وتدميها في بعض الأحيان!

ونغادر عالم السحر والفن والجمال ونفوسنا سعيدة بانتصار الخير وهزيمة الشر.. ومترعة بالبهجة والارتواء.. ولكن يخالطها شيء من الأسى والشجن لانقضاء المتعة التي لا يجود بمثلها الزمان كثيراً، ولا يتاح لنا أن ننهل من نبعها سوى مرتين أو ثلاث كل عام!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اللـون الأخضـر

تفرغ البنات من ألعابهن الخاصة، ويسأم الصبية منافساتهم الخشنة، فيجتمع شمل الجميع في دائرة واحدة، ويتصل الحديث وتبدأ الألعاب المشتركة.. ويجمع الود بيننا وبين فريق البنات فنشعر تجاههن بما نشعر به تجاه رفاق الشارع من الحب والثقة والمودة، ونتصدى للدفاع عنهن إذا تعرضت إحداهن للعدوان أو الإساءة من عابر غريب، ونلحظ بسهولة أن قانون الانتخاب الطبيعي يؤدي دوره المألوف لديهن، فتنعقد الزعامة بينهن لكبرى البنات سناً ويكون لها ما «لرئيس الشارع» لدينا من الغلمان من سطوة وتأثير على سائر الأتباع، وهي سطوة طبيعية يفرضها السن والمهارة في اللعب والقوة البدنية التي يدفع بها عنا أذى الغرباء من أبناء الشوارع الأخرى.

وبمضي الأيام تتعمق العلاقة بيننا وبين فريق البنات وتنال زعيمتهن أكبر قسط من حبنا ومشاعرنا، اتساقاً مع مكانتها البارزة في مجتمعها الأنثوي.. ثم نفاجأ ذات. يوم بغياب الزعيمة عن الشلة، واختفائها المريب من ملاعبنا ونتساءل حائرين عما يعوقها عن الانضمام إلينا، وقد كانت درة الشلة وواسطة العقد فيها، ويجيئنا الجواب مضيفاً إلى حيرتنا مزيداً من الغموض، ويقال لنا إنها قد «تخضرت».. ولم يعد مسموحاً لها باللعب في الشارع مع الصبيان، ونعجب لهذه الكلمة الغريبة التي تفيد دائماً حرماننا من صحبة كبرى البنات سناً وأجدرهن بالحب والصداقة، ونتساءل عن سر هذه العلاقة غير المفهومة بين اللون الأخضر وبين احتجاب زعيمة فصيل البنات عنا إلى الأبد، ونسأل: لماذا لا يقال لنا في كل مرة عن فتاة غابت عن شلتنا إنها قد «اصفرت» أو «احمرت».. ولماذا تقال لنا دائماً هذه الكلمة الكريهة عن الاخضرار والاحتجاب عن الرفاق المخلصين، ونسأل الأمات عن معنى الكلمة اللعينة.. ويشرحن لنا أن الفتيات لسن كالصبيان، وأنهن عند سن معينة ينبغي لهن أن يتوقفن عن مشاركة الأولاد العب في الشارع ويقرن في بيوتهن لتعلم أشياء أخرى جديرة باهتهامهن كالطهي والحياكة وأشغال الإبرة ومساعدة الأمهات في شئون البيوت استعادا لأداء- دورهن الخالد في الحياة.

ونعجب نحن لهذا المنطق «الظالم» الذي يحرم فتاة صغيرة مثلنا من متعة اللعب الجميل معنا كل يوم في الشارع ونأسف كثيراً «لظلم» الآباء والأمهات وعدوانهم الطاغي على حقوق الطفولة، لكن أسفنا يتضاعف أكثر حين نلحظ ما طرأ على الفتاة نفسها من تغيرات غريبة بعد قليل من اختفائها عنا، إذ نراها ذات يوم عابرة للطريق مع أمها فنتهلل لرؤيتها ونندفع إليها لنحييها بحرارة ولهفة ونسألها عن سر - غيابها عنا، فنفاجأ ببرودها الغريب معنا وتحفظها في الحديث إلينا، ثم تمضي إلى طريقها سائرة في «رزانة» كريهة غير عابئة بنا وبمشاعرنا الجريحة. ونشعر نحن بأن خيوطنا معها قد انقطعت للأبد، ونأسف لذلك كثيراً ثم تشغلنا مشاغل الطفولة عن الزعيمة السابقة.. وتنضم للشلة فتيات جديدات، ونتوجه بمشاعرنا واحترامنا للزعيمة الجديدة التي خلفت على العرش الخالي تلك

التي خانت عهد الطفولة معنا ولم نعد نراها بعد ذلك إلا في صحبة أمها.. فإن صادفناها ذات مرة.. نظرت إلينا في تعال كريه وكأنها «سيدة» تعامل أطفالاً لم يشبوا بعد عن الطوق.

وننـدمج في حياتنا وشئون شلتنا إلى أن نفاجأ ذات يوم آخر باختفاء الزعيمة الجديدة عن الشلة، ونسمع من جديد تلك الكلمة العجيبة عن «الاخضرار» والاحتجاب في البيت.

وتحتاج العقول الصغيرة بعد ذلك إلى سنوات طويلة لكي تعرف المعنى الصحيح للكلمة، ومغزاها الخطير، وتفهم بعد فوات الأوان أن الوصف السليم للفتاة التي احتجبت عن ملاعبنا هو أنها قد «تخدرت» أي دخلت خدرها وبيتها ولم يعد مسموحاً لها بمصاحبة الصبيان في ملاعبهم وملاهيهم، وأن الفتاة «المخدرة» هي تلك التي ألزمت الخدر أو البيت وليست تلك التي أصبح لونها يميل للاخضرار!

لكن القلوب الغضة تتلقى الإشارة قبل أن تفهم العقول بوقت طويل وتدرك بحسها الفطري أنها قد تعاملت من حيث لا تفهم مع إحدى حقائق الحياة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الغربـاء

في المدرسة الإعدادية كنا نحترس - نحن أبناء المدينة - من صداقتهم.. ولا نرحب كثيراً بتجاوز حدود الزمالة إلى علاقة الصداقة الوثيقة معهم.. ولم يكن ذلك لعيب فيهم.. وإنما لعيب فينا نحن، وفي مشاعرنا التي تتأذى بالفراق وتكرهه أما هؤلاء الذين كنا نتوخى الحذر في الاقتراب منهم فهم أبناء الموظفين الوافدين إلى المدينة، والذين يلتحقون بالمدرسة معنا، فنتعرف عليهم، ونقترب منهم ويقتربون منا.. وتتعمق لمشاعر الصداقة والألفة بيننا، ثم نذهب ذات يوم إلى المدرسة فلا نجدهم في مقاعدهم.. ونشعر بالقلق عليهم، فنتساءل عما ألم بهم.. ونعتزم أن نزورهم في منازلهم، عقب انتهاء الدراسة لنطمئن عليهم.. فما أن نتوجه إلى مساكنهم ونطرق أبوابها حتى نجدها خالية.. ونسأل الجيران عنهم، فيقولون لنا ببساطة: إنهم قد انتقلوا ليس من المسكن القديم وحده، وإنما من المدينة كلها! ولا غرابة في ذلك، فالأب موظف بإحدى المصالح الحكومية.. ولقد جاءه أمر النقل من مدينتنا إلى مدينة أخرى.. فما أسهل أن جمع أشياءه وشحن أثاث مسكنه في سيارة نقل، ثم ركب هو وزوجته إلى جوار سائق السيارة، وركب الأبناء فوق ظهرها.. وانطلق بأسرته إلى مدينة أخرى وحياة جديدة، ونشعر نحن بالحزن لانقطاع الصداقة وغياب الأصدقاء.. ونظل لأيام عديدة نترقب خطاباً من أصدقاء الأمس من مستقرهم الجديد.. فلا تجيئنا إشارة واحدة ويتعمق الإحساس بالغدر في القلوب الغضة!

ولأن الحذر لا يمنع القدر.. فقد تعمقت الصداقة بيني وبين أحد هؤلاء الغرباء ونحن في سن المشاعر الصادقة المبرأة من كل التواء وتشاربنا كؤوس الصداقة الصافية الصداقة الصافية.. وأصبح كل منا صديق الروح بالنسبة للآخر.. نلتقي في المدرسة قبل الدراسة وبين الحصص.. وفي الفسحة.. ونغادر المدرسة معاً، نتحدث في كل شيء.. أو نتوقف أمام أحد محال الفول والطعمية القريبة من المدرسة، لنحظى بوجبة شهية قبل موعد الغداء في البيت، ونتفق على الموعد الأسبوعي للذهاب إلى سينما المدينة الوحيدة.. ونقف أمام المحل الصغر الواقع في مبنى السينما، والذي ينفرد دون بقية محال المدينة ببيع الصور الصغيرة «الأبيض والأسود» للممثلين والممثلات.. مقابل قرشين لكل صورة، فنقلب في مجموعة الصور كل مرة، ويشتري كل منا صورتين أو ثلاثا لنجومه المفضلين.. ونتبادل الحديث عن أخبارهم، ثم نتجه إلى صالة السينما لنستمتع بمشاهدة حلقات «زورو العجيب» أو حلقات « روكامبول ورعاة البقر»، قبل مشاهدة العرض الرئيسي لفيلم عربي وكان العادة أن تعرض دار السينما في كل أسبوع حلقتين من المسلسل الأجنبي الطويل..: فإذا كان ما نشاهده هو الحلقة الأولى من عرض الليلة فسوف تتوقف الحلقة عند الخطر الداهم، والقطار يمضي بسرعة رهيبة في اتجاه بطل الحلقات الذي قيده الأشرار، وألقوا به على عجلات القطار لكي يدهمه.. ثم تظلم الشاشة لحظات ويبدأ عرض الحلقة التالية من اللحظة الرهيبة نفسها التي توقفت الأحداث عندها، فنسترد نحن أنفاسنا حين يظهر صديق البطل فجأة ويلقي

بنفسه على صديقه، ويدفعه بعيدا عن القضبان في المحظة نفسها التي يمرق فيها القطار فوق موقعه السابق، أما في الحلقة الثانية فلسوف تتوقف الأحداث عند الخطر الجديد الذي يداهم البطل ويكون علينا أن ننتظر أسبوعا طويلاً لكي نطمئن على مصيره. ونغادر دار السينما، ونحن نتساءل: كيف سينجو هذه المرة .. ومن الذي سينقذه؟!.. وفي مثل ذلك تمضي مناقشاتنا وأحاديثنا.. وتتعمق الصداقة بيني وبين الفتى، حتى ليصبح كل منا رفيق الروح والعقل والاهتمامات المشتركة للآخر، ثم أذهب إلى المدرسة ذات يوم فأرى صديقي مع والده في غرفة «باشكاتب»! المدرسة.. وأتساءل عما يفعل.. فأعرف أن والده قد جاء لكي يسحب ملف ابنه من المدرسة.. لأنه قد انتقل إلى مدينة جديدة، وسوف تغادر الأسرة مدينتنا بعد ساعات!

وأشعر بطعنة الغدر القاسية للصداقة المخلصة.. وأعاتب صديقي: كيف لم يبلغني من قبل بقرب انتقال أسرته إلى مدينة أخرى؟ ويدافع عن نفسه صادقاً بأنه لم يعلم بأمر النقل إلا بالأمس، فنتعاهد على استمرار الصداقة بيننا على البعد.. وعلى أن يكتب إليّ بعنوانه الجديد، لكي تتواصل المراسلات بيننا، إلى أن تجمعنا ذات يوم إحدى الكليات الجامعية في القاهرة أو الإسكندرية.

ينزف القلب نزيفه الصامت لفترة من العمر.. وتمضي الأيام بلا أي اتصال من أي نوع من جانب صديق الأمس.. فأتعلم درس التجربة، وأقول لنفسي: لا تقع في صداقة الغرباء فإنهم دوماً على رحيل!

ثم تدور الأيام دورتها، ويجرف النسيان شخوص تلك المرحلة من العمر.. ويجيء يوم بعد أكثر من ثلاثين عاما منها، وأدخل غرفة الخزينة بالدور الرابع بمبنى «الأهرام» لأقبض مرتبي وأجد أمامي شاباً لا أعرفه يتحدث مع الصراف، ويستعد لتسلم مكافأة مالية منه وأسمع الصراف يقرأ اسم الشاب الثلاثي، ليتأكد منه.. فيرن الاسم في أذني رنيناً غريباً.. وأحاول أن أتذكر أين سمعته من قبل؟

ثم أتذكر ما غاب عني فجأة.. وأكتشف أن هذا الشاب الذي يقترب من الأربعين هو نفسه ذلك الفتى الصغير الذي كان توءم الروح، بالنسبة لي في سن البراءة والأحلام.. وأتقدم إليه فأصافحه.. وأذكره بمدرسة دسوق القديمة.. وحلقات «روكا مبول» وصور الممثلين والرحيل المفاجيء.. فتتنبه الذكرى ويقدم لي نفسه، ويقول لي إنه قام بعمل عارض لـ «الأهرام» استحق عليه هذه المكافأة. لكنه ليس موظفاً بها، وإنما في مؤسسة أخرى.. ونتبادل أرقام التليفونات والوعود بالاتصال .. ويمضي كل منا إلى حال سبيله، وهو على يقين من أنه لن يستخدم هذه الأرقام التي دونها بحماس في أوراقه.. لأن كل شيء يتغير إلا قانون التغير نفسه، ولأن شخوص الأمس ليسوا هم أنفسهم أشخاص اليوم، وإن حملوا نفس الأسماء، أو نفس الملامح!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

القدم العارية

في سن الطفولة تختفي الحواجز.. وتتشابك الحدود، فلا فرق بين غني وفقير.. ولا بين ولد وفتاة، فالجميع أطفال يلعبون ألعابهم ويتشاركون في الحكايات، ويقضون يومهم في الجري واللعب والحركة كأنهم يؤدون «عملاً» شاقاً لا بد لهم من أدائه بإخلاص قبل أن يرجعوا إلى أسرهم وبيوتهم مجهدين آخر النهار بعد يوم «عمل» طويل!

وفي شلة الأطفال يتشارك الصبيان والبنات في كل الألعاب، فلا يفترقون إلا حين تفضل البنات ممارسة بعض الألعاب التي تميل إليها طبيعتهن، ولا تتفق معها طبيعة الأولاد، فيرسمن على الأرض بالطباشير عدة مستطيلات، ويلقين عليها بقطعة من البلاط المكسور، ثم يحجلن على قدم واحدة ويدفعن هذه القطعة بالقدم الثابتة على الأرض من مستطيل إلى آخر، وتفوز بقصب السبق منهن من تدفعها أمامها من المستطيل الأول إلى المستطيل الأخير بغير أن تفقد توازنها أو تستند بقدمها المعلقة إلى الأرض.. ونرقب نحن البنات في لعبتهن ،ونتساءل ماذا يغريهن فيها وهي لا تبدو لنا مسلية أو واعدة بالإثارة والمتعة، وننصرف عنهن إلى لعبة أخرى تتفق مع طبيعتنا كصبيان، فنرسم على الأرض غير المرصوفة بنفس قطعة الطباشير دائرة صغيرة.. ونشحذ خناجرنا البدائية التي صنعناها من شظايا قطع الصاج أو الحديد التي تلقي بها إلى الطريق مخارط الحدادين القريبة منا، ونروح نتبارى في رشق هذه الخناجر في الأرض.. ويفوز منا بقصب السبق من يصيب خنجره قلب الدائرة.. ويبوء بالخسران من تطيش سهامه بعيدا عنها..

وفي إحدى هذه المباريات اليومية، لاحظ أحد الرفاق المتبارين أن ولداً من المتفرجين يقف بالقرب من دائرة الهدف، فطلب منه الابتعاد عنها لكيلا يصيب سهم طائش قدمه الحافية بالأذى، فلم يستجب للتحذير بعناد طفولي مفهوم، وكرر عليه الرفيق النصيحة مصحوبة هذه المرة بتحذير شديد من أنه إذا لم يبتعد بقدمه العارية عن منطقة الهدف فلسوف يرشق خنجره فيها! ويستفز التحذير عناد المتفرج أكثر وأكثر فيجيبه بتحد عجيب: افعل.. إن كنت «رجلاً» !

فلا يزيد الرفيق عن أن يقول له ببساطة شديدة: أهوه!

ثم يرشق خنجره في القدم العارية فيستقر بين إصبع القدم! والأصبع الكبرى الذي يليه.. وينفجر الدم كالينبوع.. ويصرخ الولد ويفزع الجاني ويطلق ساقيه للريح.. وينتابنا الرعب الشديد.. ونحار فيما نفعل والخنجر ما زال مرشوقاً في قدم الصبي الذي يصرخ ويولول ونهم بأن نستغيث بالكبار لينقذوا الطفل الجريح، لكن «أشجعنا» يحسم الموقف بأن يتقدم من الطفل، ثم ينتزع الخنجر من قدمه بقوة ترافقها صرخة مدوية من المصاب.. ثم نهرول إلى بيوتنا نطلب «الإسعاف الطبي» المألوف لنا للطفل الضحية.. فيكون الإسعاف المعتاد في ذلك الوقت هو كمية كبية من البن نرجع بها من البيت و «نكبس» بها جرح الصبي النازف، فيتوقف النزيف بعد حين، وتتوقف دموعه أيضاً.. ثم نجلس إلى جواره نشد من

أزره ونهون عليه المصاب ونلومه على عناده الذي أورده موارد التهلكة، ومن بعيد يتراءى لنا وجه الصبي الجاني ممتقعاً وشاحباً، ويتردد هو في الاقتراب منا تحسباً لما قد يناله من أذى أبويّ الطفل حين يعلمان بالحقيقة. فننهض نحن بحماس الأطفال المعهود لتسوية الموقف، ونحث الصبي الجريح على العفو عن رفيق اللعب، حرصاً على أواصر المودة والصداقة و «الرجولة» التي تجمع بيننا.. ونتكاثر عليه.. فلا يرد رجاءنا ببراءة الأطفال وعجزهم عن أن يحملوا حقداً لأحد، ويومىء برأسه بعد قليل موافقاً على الصلح المنشود، ونشير نحن للجاني الواقف بعيداً بإشارة الأمان.. فيقترب بحذر.. إلى أن يدنو من دائرتنا فيقول موجهاً تساؤله إلى ضحيته في رجاء:

«صافية» يا لبن؟

فيجيبه الصبي بتأثير نظراتنا المشجعة بصوته الرفيع: حليب يا قشطة!

فيقترب منه ماداً إليه إصبعيه السبابة والوسطى وضاما باقي أصابعه فيمد إليه المجني عليه سبابته ووسطاه بنفس الطريقة وتتلامس الأصابع علامة على الصلح وعودة الوفاق، ثم يرفع كل منهما إصبعيه إلى فمه فيلثمها.. ثم يلمس بهما جبهته.. ويهلل الرفاق فرحاً بعودة الوئام، ويقترب الجاني من ضحيته فيقبل رأسه.. وينهض الصغار لمعاودة اللعب وكأنما لم يقع شيء يعكر صفو الحياة.. ولأيام بعدها «يحجل» بيننا ذلك الصبي بقدمه المصابة الملفوفة برباط متسخ مستمتعاً بنظرات «الإكبار» التي تحيط به من الرفاق «لرجولته».. التي تجلت عند الاختبار حيث تكتم حقيقة أمر إصابته عن أبويه وزعم لها أنه قد جرح نفسه بخنجره على سبيل الخطأ، لكي يحمي رفيق اللعب من بطش الكبار، وترجع المياه إلى مجاريها السابقة بين الصغار صافية بنقاء القلوب الغضة واستعدادها الفطري للنسيان فطوبى لأيام البراءة والمشاعر الطاهرة.. وطوبى لأيام السعادة المبرأة من كل الأوزار.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

العصر الذهبي

في المدرسة.. يتبارى الصغار في الفوز برضا المدرسين وتجنب غضبهم وعقابهم.. وبالرغم من الجد والاجتهاد فلا أحد من تلاميذ فصلي ينال بعض المكانة التي يحظى بها «ألفة» الفصل - أو أوله في الترتيب الدراسي -.. ابن عامل السكة الحديد «تميم» فهو «حبة عين» مدرسي الفصل جميعاً، ومهما بذلنا من جهد وعطاء فهو المفضل لديهم بلا مراء، وهو الوحيد الذي يخصه «فهيم أفندي» مدرسنا بالرعاية والإيثار، ونبذل غاية الجهد للتفوق ونيل الرضا السامي فلا تكون غاية جهدنا إلا النجاة من اللوم والعقاب، ويظل التفضيل والتمييز دائماً لـ «تميم» ومن بعده لذلك التلميذ ذي الاسم الغريب «وكيل» حتى ضاق بعضنا بهذه التفرقة فأطلق دعابة تقول: إن «تميم» و «وكيله» هما سادة الفصل بلا منازع!

وتمضي الأيام في دورتها المحتومة ثم أجدني ذات يوم في قطار الديزل المنطلق من القاهرة إلى الإسكندرية، ويقترب مني كمساري القطار فألاحظ على البعد تجهمه وتعامله الجاف مع الركاب، فأتهيأ نفسياً للتعامل مع. تحفظه، فما أن يقترب مني حتى تدوي في الذاكرة أصداء الذكريات البعيدة وأتذكر «أَلْفَة» الفصل و «دلوعة» الأساتذة المفضل.. «تميم»! وأتعجب لهذا المصير الذي انتهى إليه نجم الدراسة القديم، ويقترب مني فأسأله عن اسمه، فيظر إليّ متجهماً ومتشككاً، ثم يجيبني في تحفظ على السؤال.. فتتأكد الظنون... وأعرّفه بنفسي وأذكره بأنني كنت زميلاً له بالسنة الثالثة بمدرسة النجاح الابتدائية في الزمن البعيد.. فترق ملامحه بعض الشيء.. ويتذكر أسماء المدرسين القدامى.. واسم «وصيفه» السابق في الفصل الذي عرفت منه للعجب أنه قد انتهى أيضا كمسارياً بالسكك الحديد! لكنه لا يتذكرني ولا يتذكر اسمي بالرغم من المحاولة، ولا أعجب لذلك حين يودعني منصرفاً عني إلى غيري، إذ كيف «للنجوم» أن يتذكروا غمار التلاميذ وأحاد البشر في عصورهم الذهبية السابقة؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الصـورة الغائمـة

صورته غائمة في مخيلتي.. أنجح أحياناً في استرجاع بعض معالمها.. وأفشل في أحيان أخرى!

يخيل إليّ أنني أتذكر ملامح وجهه الوسيم.. ويخيل إليّ في أحيان أخرى أن ما أتذكره منه ليس سوى سراب خادع ضاع معظم أثره في غمار الأيام.. تعى ذاكرتي الطفولية منه صورة «أفندي» من «أفندية» الزمن القديم.. يرتدي البدلة والطربوش ويصفف شعره بـ «البريانتين».. ينام في غرفة منفردة صغيرة في مدخل البيت القديم بالدور الأرضي ينهض من نومه في الظهر فيدخل الحمام.. ويصعد إلى الدور العلوي وهو مازال في بيجامته المخططة بالخطوط الطولية العريضة، فيعابث كل من يلتقي به في طريقه من أبناء أخيه وشغالات الأسرة، ويحيي زوجة الأخ باسماً، فترد عليه تحيته بحبور، وتأتيه بالإفطار والشاي.. فيجلس في شرفة البيت الخشبية المسقوفة، كأنها قفص كبير تتخلله أشعة الشمس من فتحات الشرائط الخشبية المتقاطعة التي تكسو نصفها العلوي، فترسم مربعات ومثلثات ذهبية بهيجة على أرضية الشرفة. يقرأ الصحف التي تختلف عن صحيفة رب الدار الوقور، التي لا يقرأ سواها وهي «الأهرام».. ينثر المرح حوله أينما حل.. يشاكس أمه جدتي المعتصمة غالباً بحجرتها تشرب الشاي والقهوة وتأكل الملبن لملاءمته لأسنانها المخلوعة التي تحتفظ بها في علبة معدنية وتعرضها عليّ من حين لآخر وهي تتأسف لما قضى به الزمن!

يفتح الراديو الخشبي الكبير الذي يحمله رف عال في حائط الصالة.. ويغطيه في أوقات توقف الإذاعة كساء أبيض نظيف.

يستمع إلى أسطوانات الأغاني الشهيرة في ذلك الزمن السعيد في موعد إذاعتها اليومي - من الثانية حتى الثانية والنصف .. موعد إذاعة نشرة الأخبار. يشبع فضولي وعجبى من هذا الصندوق السحري الذي يحمل إلينا الأصوات والغناء بديلاً للأغاني التي لا نسمعها إلا من مطربي «العوالم» كلما تزوجت إحدى فتيات الأهل، فيعابثني.. مؤكداً لي أن المطربين والمذيعين «يقيمون» داخل هذا الصندوق، ويحرمون أنفسهم من كل متع الحياة لكي يسعدونا بأغانيهم وموسيقاهم.. وأنهم ينصرفون ليلاً إلى بيوتهم وأسرهم ونحن نيام!.. فأقاوم النوم أياماً طويلة لكي «أضبطهم» عند خروجهم، وأحاول جاهداً الاستيقاظ مبكراً قبل الفجر لأراهم عند دخولهم إليه.. فتطيش كل محاولاتي في الهواء!

،

ويواصل عبثه ومشاكساته للجميع.. إلى أن يسمع طرقات الباب في الثالثة بعد الظهر.. وتعلن إحدى سيدات الأسرة وصول أبي من تجارته لطعام الغداء.. فيختفي العبث والضجيج فجأة، ويحل الصمت والترقب، وتكتسي ملامح العم الشاب بالجدية والهدوء، ويلتف الجميع حول الطعام في صالة البيت، فلا يُسمع للعم المشاكس صوت.. ولا يجيب على سؤال لأبي إذا وجه إليه الحديث إلا بصوت

رزين خفيض.. وأمي وشقيقتي الكبرى تتبادلان النظرات الضاحكة الصامتة تعجبا من هذا «الأدب المباغت» الذي حل على العم الشاب! إلى أن يفرغ أبي من طعامه، ويكون دائما أول من يغادره إلى الحمام، ثم إلى غرفته لينام بعض الوقت.. فيتخلص المجلس على الفور من تحفظه .. ويتنفس العم المشاغب الصعداء ويرجع لمشاغباته ومعاكساته، ويبدأ جدياً في تناول غدائه، الذي حال تحفظه أمام أخيه دون أن يتناوله بحريته!

ثم يحتسي الشاي وينزل إلى غرفته، فيرتدي ملابسه، ويقضي وقتا طويلاً في التأنق وربط تلك «الربطة» العجيبة التي «يخنق» بها نفسه.. وتتدلى بألوانها المزركشة فوق قميصه، ثم يضع طربوشه المائل فوق رأسه، وينفث بعض «نفثات» من الكولونيا في وجهه.. ويخرج إلى نزهته اليومية.. فيلتقي بأقرانه من شباب المدينة.. أو يزور أخاه الأوسط في تجارته، فيجلس أمامها بين كوكبة من أعيان المدينة وكبار موظفيها يتحدثون في السياسة والأحوال الجارية، ويرجع في نهاية السهرة إلى غرفته المنفردة وحيدا وقد نام كل أفراد الأسرة، فيهجع إلى مخدعه ويمضي يوم آخر من أيامه!

أتساءل في حيرتي: ماذا يفعل عمي الشاب بحياته؟! وماذا يعمل؟! فلا أسمع سوى إجابات غامضة ومصمصات للشفاه من أمي وجدتي..

أرقب حياته فأرى فيها مثالاً «نموذجياً» للحياة التي أتطلع إليها في المستقبل.. نوماً طويلاً، بلا استيقاظ كريه في الصباح المبكر للذهاب إلى المدرسة أو العمل.. وفراغا سعيداً لا يفسده إلزام بوظيفة أو عمل وصحبة راقية في الأصيل لأشخاص من الطبقة الراقية.. وملابس عصرية تزدان بربطة العنق العجيبة.. وطربوش أنيق يشي ميله إلى أحد جانبي الرأس «بشبابية» صاحبه وعصريته!.. فأي حياة أفضل من مثل هذه الحياة؟!

في إحدى نزهاته المسائية يصطحبني للخروج،.. فألبي الدعوة سعيداً ومبتهجاً.. يمضي في شوارع المدينة الصغيرة، وينحرف يميناً ويساراً، ثم يدخل بيتاً يبدو لي كالقلعة الحصينة، لأنه محاط بسور متوسط الارتفاع وبيوتنا كما نعرفها لا تحيط بها أسوار -.. يجلس على بابه الحديدي بواب، ينهض تحية لعمي الشاب، فأزداد اعتزازاً به وافتخاراً، ثم يتجه وأنا معه إلى «فراندة» واسعة بالدور الأرضي يجلس بها بعض الرجال فيحييهم ويردون تحيته، ويجلس إلى جوارهم ويتبادل معهم الحديث. ثم يأتي رجل بصينية محملة بأكواب عديدة من «القرفة»، فيطوف بها على الحاضرين ويقف أمامي، فيتحلّب ريقي.. لكني أتجمد في موقعي رافضاً مد يدي إلى الصينية، إلى أن يشير لي عمي فأحتسي القرفة الساخنة في حبور.

تتردد في أحاديث الرجا أمامي أسماء غريبة كالنحاس والنقراشي وأحمد ماهر ومكرم عبيد.. أسأل عمي في همس عمن يكون صاحب هذه القلعة من بين هؤلاء الرجال الجالسين في الفراندة.. فيجيبني في همس: إنه ليس من بينهم ولا المدينة كلها هذا اليوم.. فيزداد عجبي لهذا الرجل الغامض، الذي يفتح بيته للغرباء في

غيبته ويقدم لهم القرفة فيجلسون على راحتهم في شرفته يتحدثون في السياسة وكأنهم في ناد اجتماعي أو مقهى عام!

وأعرف بعد فوات الأوان! أن البيت بيت مرشح الدائرة عن الحزب السعدي القديم، وأن الموسم موسم انتخابات تحول خلاله الدار إلى منتدى عام يؤمه من يشاء في أي وقت، فيجد الترحيب، والمناقشات الحامية حول مستقبل البلاد.. وترتبط في ذاكرة الصغيرة كلمة «السياسة» بالقرفة المجانية.. ومناقشات الرجال المجهمين حتى زمن بعيد وأحفظ اسم هذا المرشح الكريم الذي يفتح بيته للغرباء، وأتتبع مسيرته في الانتخابات لأطمئن إلى أن قرفته الساخنة لم تذهب هباء!.. فأعرف أحياناً أنه قد نجح في الانتخابات وأصبح نائب الدائرة.. وأعرف في فترات أخرى أنه لم يحالفه التوفيق.. وتحتفظ له ذاكرتي بذكرى عجيبة شعرت له خلالها بالأسى وبعض الخجل!.. إذ أهب من نومي مذعوراً ذات ليلة خلال معركة الانتخابات الأخيرة التي سبقت قيام ثورة يوليو، على أصوات صاخبة تهز أرجاء المدينة، وأخرج إلى الشرفة فأرى في شارع المدينة الرئيسي «جنازة» حارة يسير فيه الآلاف بعد منتصف الليل.. يحملون نعشاً خالياً.. ويهدرون في صوت واحد متسائلين: من الذي مات؟

ويجيبون على سؤالهم بصوت كالرعد: فلان الفلاني!

«وهو نفس المرشح الغامض » الذي شربت القرفة في بيته قبل سنوات فيكون ذلك إعلاناً بظهور نتيجة الانتخابات وسقوطه سقوطاً مدوياً أمام المرشح الوفدي! وأتعلم في سن مبكرة أن السياسة لا تؤثر فيها «القرفة» ولا العواطف والمجاملات الشخصية!

أما العم الشاب فيعيش حياته في دعة.. ويواصل مشاكساته لأمه وزوجة أخيه وأبنائه بلا توقف، ومن حين لآخر يختفي من البيت لفترات تطول أو تقصر، فأفتقده حين يغيب، وأسعد بعودته حين يرجع وأتساءل عن سبب الغياب، فأسمع كلمات مقتضبة عن «المصحة». والقاهرة.. ومغاني العاصمة وأعرف في أحيان أخرى أنه قد سافر للقاهرة على غير إردة أخيه أبي وأمه.. وتكون أسفاره المتقطعة سبباً جديداً من أسباب الصدام بينه وبين جدتي ويعجز عقلي الصغير عن فهم أسباب الخلاف، لكني «أفهم» شيئاً واحداً هو أن جدتي هذه «تكره» ابنها، بدليل أنها تدعو عليه بالموت كلما أغضبها في شيء أو رغب في السفر للقاهرة على غير إرادتها وإرادة أبي.. غير أن الحياة سرعان ما تلقنني درساً جديداً من دروسها القاسية، إذ أرجع من مدرستي ذات يوم فألحظ الوجوم والاضطراب يسودان البيت، وأرى شقيقتي الكبرى دامعة العين ومضطربة في مطبخ البيت، وصديقة شابة لها تحاول أن تخفف عنها اضطرابها.. وتخرق أذني عبارة هامسة تفسر بها أختي لصديقتها سر اضطرابها، وهو أن «عمي يموت»!

وأقف ذاهلاً وعاجزاً أمام هذه الحقيقة المؤلمة ..

وتمضي الأحداث في طريقها المرسوم!

ويمتلىء البيت بالسيدات المتشحات بالسواد ..

وتبعدنا أمي إلى بيت جدتي لأمي مع الصغار لأيام.

وأرجع إلى اليت فأرى الصمت والحزن يخيمان عليه.. وأرى الراديو الكبير متشحًا بعطائه على الدوام.. ولأيام طويلة أصحو من نومي مفزوعاً على عويل جدتى على ابنها الشاب ودموعها الغزيرة عليه.

وأتعجب فيما بيني وبين نفسي لهذا الحزن الطاغي عليه، وقد كنت أظنها تكرهه وتتمنى له الموت، كما كان ينطق لسانها في فترات الخلاف!

وأعرف في وقت مبكر - وبالتجربة المؤلمة - أن «لسان» الأمهات لا يعبر دائماً عما في قلوبهن تجاه أبنائهن.. فلا أعول بعد ذلك كثيراً على أية كلمة أو عبارة تصدر من أم بشأن ابنها وهي تتشكى منه أو تزعم غضبها عليه، وأمنيتها له أن «يفرمه» ترام القاهرة ،كما كانت تقول جدتي في ذروة غضبها على ابنها .

وأكتشف - بعد فوات الأوان - سر بطالة عمي الشاب هذا.. وسر غضب أبي وجدتي منه كلما سافر للقاهرة أو غاب عن البيت.. فلقد كان الشاب الضاحك الساخر مصدوراً منذ سنوات، وتمكن المرض منه وهو مقيم بالقاهرة يعمل ببعض الوظائف.. فرأى له أبي - بتشجيع من جدتي - أن يهجر العمل ويرجع إلى بيت الأسرة حيث ينعم بالراحة والرعاية والتغذية الجيدة.. على أمل أن تتحسن صحته ذات يوم.. فكان يستجيب لنداء الحكمة ويرجع للاستقرار في بيت الأسرة بلا عمل لبعض الفترات.. ويستجيب في أحيان أخرى لنداء القاهرة ونزوات الشباب، فيغيب عن البيت بعض الوقت، ويرجع بعد أن تنفد تقوده.. وتتهالك صحته.. فيستقر في رعاية الأسرة لفترات أخرى..

وما بين نداء الراحة.. ونداء الشباب.. مضت حياته القصيرة، إلى أن انطوت صفحتها ذات يوم بعيد.. مخلفة في ذاكرتي هذه الصورة الغائمة عنه!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

رسـائـل الـغـرام

شكرية.. فتاة صغيرة من فتيات شارعنا توحي ظروفها العائلية بأجواء مأساوية غامضة لا تدرك عقولنا الصغيرة كنهها، غير أننا نعرف عنها أنها يتيمة الأب منذ زمن لا تعيه الذاكرة، وتعيش مع أمها الأرملة في كنف جدها لأبيها، وسط عدد من الأعمام وأبنائهم الصغار، وعلى خلاف غيرها من بنات الشارع نلمح دائماً نظرة الانكسار في عينيها، بالرغم من حدب الجد والأعمام والأم عليها، تلعب مع أبناء أعمامها وصغار الشارع، فنلمح الغيرة في عيون بعض قرنائها من أبناء العم، إذا اقتربت من أحد أو اقترب منها أحد، وتتنبه حاسة الصغار المرهفة بسوء الظن، فنخترع البراهين على أن أحد هؤلاء الأبناء يرتبط بها عاطفياً، وينتظر الوقت المناسب لطلب يدها من أبيه أو جدها، أما شكرية نفسها فلا نشعر نحن بتفضيلها لأحد أبناء العم على غيره، ولا بقربها الخاص من أحد الصغار، وتمضي السنون في طريقها المعهود، وتدخل الفتاة طور الأنوثة فتستشعر أمها الحرج من استمرار حياة الابنة المشتركة مع فتية من نفس عمرها تحت سقف واحد، وتطلب الاستقلال بمعيشتها مع ابنتها في مسكن خاص وتصر على مطلبها حتى يتحقق.

وتبدأ الفتاة مرحلة جديدة من حياتها.. وتقيم بشقة مستقلة مع أمها في شارعنا، وننشغل نحن عنها بحياتنا وشجوننا، فلا يمنعنا ذلك من تسقط أخبارها من حين لآخر، فنعرف أن القلب البكر قد خفق لفتى من أسرة فقيرة، راح يلاحقها كل صبح وهي في طريقها إلى المدرسة الثانوية حتى استجاب لندائه وبادله الحب، والاهتمام، وفي كل صباح يترصدها الفتى عند منعطف الطريق فتلقى العيون في نظرة مفزعة وقد تسمح الظروف باستراق فرصة خاطفة تلامس فيها الأيدي وسط زحام المارة.. فتنتقل ورقة مطوية صغيرة من يد إلى يد، ثم يمضي كل منهما في طريقه، ويفتح ورقته المطوية فيقرأ بعض الكلمات العاطفية المنقولة غالباً من كتاب أصفر صغير كان مداولاً بين الفتية في ذلك الحين اسمه «رسائل الغرام»، وبالرغم من لك فالمشاعر غضة.. والحب عفيف والصلة لا تتجاوز هذه النظرات المتبادلة، وهذه الأوراق المطوية.. والإيمان صادق بأنه:

«قد يجمـع الله الشتيتين بعدمـا

يظنـان كـل الظـن ألا تـلاقـيـا»

كما قال أبو تمام.. وفي عالمنا الذي لا تخفى عليه الأسرار ندرك أن القلب قد اختار طريقه فنحترم اختياره.. ويكف المتطلعون إلى كسب المودة عن محاولاتهم غير أننا لدوافع غير مفهومة نسعى إلى رؤية الفتى، والاقتراب منه كأنما نحاول أن نستكشف مزاياه التي غزت قلعة حصينة تحطمت أمامها محاولات كثيرين من قبل، فلا يكشف لنا الاقتراب منه عن شيء خارق في شخصيته أو ظروفه.. وإنما هو «القلب قد أمر».. فنتلقى أولى خبراتنا الثمينة في هذا المجال المحفوف بالتحفظ والأستار، ثم ندرك بعد حين أن الرحلة في مياه هذا النهر ليست دائمـا

نزهة سعيدة تحت ظلال القمر، وإنما لها أيضا عناؤها ومعاناتها حتى لينطبق على أطرافها في بعض الأحيان ما قاله المتنبي ذات يوم: إني بما أنا باك منه محسود!

فلقد تجهمت السماء بعد حين في دنيا الحبيبين وترامت الأنباء إلى الأسماع بأن الفتى قد تطلع إلى الارتباط بفتاته بعد أن يحصل على شهادته المتوسطة، وفاتح أباه البسيط في ذلك فرق له قلبه، وسعى إلى عم الفتاة مستكشفاً الطريق فرده رداً عنيفاً، وأكد له استحالة تحقق هذا الخيال ذات يوم بالنظر إلى ظروفه الاجتماعية غير الملائمة وللفوارق العائلية التي رآها العم كبيرة بينه وبين الرجل، ثم استدار العم إلى ابنة أخيه فعنفها وعنف أمها بشدة، وحجبها عن الذهاب للمدرسة لبعض الوقت، مؤملاً أن يدفعها ذلك لإعادة النظر في موقفها من الفتى قبل أن يسمح لها باستئناف الدراسة، فإذا بالفتاة تسقط فريسة لمرض غامض لا يدري أحد كنهه، ويعجز الأطباء أمامه، فتمضي الأيام وهي مستسلمة للفراش عازفة عن الكلام والطام والحركة، وتنتابها ذات مرة نوبة عصبية شديدة فتهرول إلى شرفة المسكن باكية وهي تهتف باسم الفتى المنشود عدة مرات، وأمها تغالبها وسط دموعها وتحاول السيطرة عليها خوفاً من أن تلقي بنفسها من الشرفة، ويشهد الجيران هذا المشهد الباكي فيتبادلون النظرات المبرة والمشفقة ويتحفظ الكبار في الحديث عن الأمر أمام الصغير لكيلا يفتحوا عيونهم على أسرار الحياة التي لم يحن الوقت الملائم بعد لاطلاعهم عليها، ويشاركهم الصغار التحفظ والتجاهل.. وإن كانت عقولهم الصغيرة تدرك من الموقف بعض ما لا يدركه هؤلاء الكبار، وآذانهم تسمع عنه بعض ما لا يسمعونه.

وينتهي مشهد الشرفة بنجاح الأم بعد عناء شديد في السيطرة على الفتاة المهتاجة وإعادتها إلى داخل الشقة، وتخمد العاصفة بعد ذلك فلا يسمع أحد للفتاة ً ولا نحيباً.. ولا تخرج في نفس الوقت لاستئناف دراستها، وينزوي الفتى مستسلماً لليأس. ويتراجع الاهتمام بالقصة وسط مشاغل الحياة، غير أن الشارع يصحو ذات يوم على صراخ موجع صادر عن مسكن الأرملة وابنتها، ويفزع السكان إلى نوافذ البيوت وشرفاتها، فإذا بالأم الحيرة تنعي للجميع ابنتها الوحيدة.. وينفجر الخبر في الشارع كالقنبلة وتكتئب الوجوه شفقة وتعاطفاً... وتندى العيون بالدمع في الشرفات، ويتعجب كثيرون لوفاة الفتاة التي لم تبلغ سن السابعة عشرة بعد، ويتساءلون متحسرين: ترى أماتت من وطأة الحرمان من الحب على جسدها الضعيف.. أم ماتت بمرض غامض لم يحسن الأطباء تشخيصه في الوقت المناسب، ولم يعالجوها منه منه العلاج الشافي؟

وتظل الأسئلة معلقة في سماء الحيرة سنوات طويلة، لكن شكرية تدخل منذ ذلك الحين التاريخ العاطفي لشارعنا كبطلة مأساوية من بطلات الحب في هذا الزمن البعيد وتصمد ذكراها كرمز عجيب للحب والحرمان قرأنا مثالاً له فيما بعد في مأساة شكسبير الشهيرة عن روميو وجولييت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

انكسـار الأحـلام

على طريقة «أنور وجدي» كان يصفف شعره ويدهنه بـ «الفازلين» اللامع! وكبعض سكان الجنوب في شارعنا.. كان يسكن بيتا «ميكروسكوبياً» تظن حين تراه أنه قد بنى كـ «نموذج» للعرض في معارض التسويق لمشروعات الإسكان.. وليس للإقامة فيه! فمساحة الأرض التي أقيم عليها لا تتجاوز بأية حال ثلاثين مترا.. وبالرغم من ذلك فهو «بيت» من دورين، يحفظ للأسرة كيانها واستقرارها، وتزهو بملكيتها له، ويرفعها درجة عن غيرها من أسر البسطاء التي تستأجر مقر مسكنها!.. ولقد دخلته في مناسبة احتفال الأسرة بفرح الابنة الكبرى الجميلة وأنا طفل صغير، فوجدت دوره الأرضي عبارة عن باحة صغيرة لا تضم سوى المرافق، ودوره العلوي لا يضم سوى باحة مماثلة تستخدم كغرفة نوم ومعيشة.. وفي هذه الغرفة جلست العروس الجميلة في فستان زفاف بسيط.. وصطف أمامها المدعوون في ثلاثة صفوف من المقاعد.. وراح الأطفال يجرون في كل مكان الأطفال .. وفي أحد الجوانب جلست «الفرقة الفنية» التي تحيي الفرح.. وكانت مكونة من عازف على بيانو صغير الحجم، وعازف للإيقاع وآخر للترومبا أو البوق النحاسي -أما نجمة الفرقة فهي «عالمة» ترقص وتغني وتجمع النقوط في منديل.. فغنى عازف البيانو «يا حاسدين الناس»، وألقى عازف الإيقاع بضعة منولوجات وكانت مفاجأة الحفل هي غناء «الأستاذ» بضع أغان عاطفية بصوت لا بأس به!

أما «الأستاذ» فهو شقيق العروس المحتفى بها، ونجم من نجوم الشارع الذين يشار إليهم بالبنان.. ولقد كان موعوداً بالمجد والشهرة كمطرب، وربما كنجم من نجوم السينما.. لولا حادث صغير حول مجرى حياته!

فلطالما راود الأستاذ الحلم بأن يكرر قصة مطرب معروف من أبناء المدينة.. سافر إلى القاهرة وهو فتى صغير، وساعده نائب الدائرة الوفدي على التقدم للإذاعة فاعتمدته مطرباً وسجلت له بعض الأغاني.. وشق طريقه بعد ذلك في الأفراح والحفلات.. فلماذا لا يكرر «الأستاذ» سيرته، وهو الذي يتميز عنه بشيء من الوسامة والشعر الغزير المصفف إلى الوراء.. فضلاً عن صوت يراه هو جميلاً ساحراً، ويراه السامعون مقبولاً.. أو شبه مقبول!

وهكذا سيطر عليه حلم السفر للقاهرة والتقدم للإذاعة.. وأعجزته الإمكانات المادية، فراح يدخر القرش على القرش ليتمكن ذات يوم من توفير نفقات السفر والإقامة في القاهرة ومواجهة صعوبات البداية إلى أن يتحقق النجاح ويتدفق المال.. وفي سبيل ذلك راح يغني في الأفراح لقاء قروش قليلة، ويلتقط الرزق عن طريق العمل كعازف إيقاع كلما أتيح له ذلك.. محافظاً في الوقت نفسه على سمت الفنان الموعود بالمجد والشهرة.. فيمشي في الشارع في وقار، منتعلاً «الشبشب»، وحاملاً طبقاً فارغاً لشراء «الفول» ويحيي معارفه خلال الطريق بابتسامة مهذبة.. وتحية متزنة.. ويرجع إلى البيت حاملاً الطبق المملوء وهو يدندن لنفسه بكلمات أغنية ويهز رأسه في جلال مع النغمات.. إلى أن، تمكن بعد

عدة سنوات من توفير بضعة جنيهات، فاصطحب صديقا له وركب القطار إلى القاهرة ليقتحمها بموهبته الفنية ويفرض اسمه عليها!.

لم تمض سوى أيام قليلة حتى شهدته بالمدينة الصغيرة عائداً إليها مع زميله مخفوراً والقيود في يديه! وتسربت الأنباء، فعرف المهتمون بأخباره أنه قد عجز عن دخول الإذاعة بالرغم من محاولته أكثر من مرة، ونفدت نقوده القليلة.. فراح يبيت مع صديقه في حديقة الأزبكية متمسكاً بالأمل في انصلاح الأحوال فاشتبهت فيه الشرطة هو وصديقه، وألقت القبض عليهما بتهمة التشرد، ولم تجد معها ما يثبت شخصيتهما فأعادتها مخفورين إلى مركز شرطة المدينة للتحري عنهما، ومعرفة ما إذا كانا هاربين من جريمة أو مطلوبين للقضاء في بعض الجرائم!.

وكان الدرس قاسياً فعزف الأستاذ عن حلم اقتحام القاهرة مرة أخرى، ورضي بواقعه البسيط، واكتفى من أحلام المجد الغابر بالعمل كعازف إيقاع ومطرب «محلي» في الأفراح كلما وجد إلى ذلك سبيلاً.. و «توسع» مع تقدم العمر في نشاطه «الفني»، فأضاف إليه الاتجار في الطبول والدفوف أو تأجيرها للراغبين لقاء قروش زهيدة.

ولم يفقد أبداً بالرغم من ذلك جلال الفنان.. ولا وقاره والتصق به إلى النهاية لقب «الأستاذ» بالرغم من بساطة لحال.. وبقيت لي من ذكرياته ذكرى صورة خيالية غريبة ارتسمت في ذهني حين سمعته يغني في فرح شقيقته أغنية تقول:

جانا النصر جانا.. جانا والله جانا.. جانا النصر بسيف الماضي.. يفتح لنا كل الأبواب!

فإذا بخيالي الطفولي يترجم هذه الكلمات ترجمة عجيب.. ويتمثل النصر في ذهني كرجل يمسك سيفا ينهال به على أقفال أبواب المحال التجارية المغلقة في الليل فيفتحها! ولم تسعفني مداركي بوقتتها لتخيل أية «أبواب» أخرى يمكن لسيف النصر هذا أن يفتحها سوى أبواب المحال التجارية المغلقة!

وتمضي سنوات من العمر قبل أن أفهم بعض تأثير البيئة التي ينشأ فيها الطفل على مداركه وتخيلاته، والرموز التي يراها بمنطقية تماماً من وجهة نظره!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في القطـار

أخرج من البيت مبتهجاً في صحبة أبي في غبشة الفجر، والدنيا مازالت نائمة.. فاليوم هو اليوم الموعود الذي ظللت أنتظره في لهفة منذ بدأت الإجازة الصيفية، وبعد طول انتظار جاء موعد سفر أبي إلى الإسكندرية، لكي يزور كبار تجارها من المصريين والأجانب في محالهم وشركاتهم.. ويتعاقد على ما يريد شراءه منهم، ويدفع لهم مستحقاتهم.. ثم يرجع مظفراً إلى أسرته في المساء حاملاً علبة «الجاتوه» الكبيرة من محال الإسكندرية التي تشتهر به، إلى جانب بعض خبز «التوست» كبير الحجم الذي تجيد أفران اليونانيين بالثغر صناعته.. ونترقبه نحن بلهفة شديدة.

ولقد جاء دوري في مصاحبة أبي إلى هذه الرحلة الخطيرة.. فلقد كان يستجيب لإلحاحنا عليه خلال إجازة الصيف، فيأخذ أحد الأبناء معه في كل رحلة طوال أشهر الصيف.

وفي محطة القطار بمدينتي أنتظر بقلب سعيد موعد السفر وأتعجب لماذا الإصرار كل مرة على ركوب أول قطار يغادر المدينة إلى دمنهور في الخمسة والثلث صباحاً مع أن هناك مواعيد أخرى أكثر ملاءمة في السابعة والثامنة؟

وتمضي رحلة لقطار سريعة.. ونغادره في محطة دمنهور، فيتجه أبي إلى «بوفيه» المحطة.. ويطلب الشاي والبسكويت.. إلى أن يجيء موعد القطار المتجه للإسكندرية.. وتثقل عليّ فترة الانتظار هذه التي تصل إلى نحو الساعة، ثم يجيء الفرج مع اقتراب صوت القطار المنتظر.. وأنهض في حماس مع أبي لركوبه، ونشق طريقنا في الممر الضيق أمام دواوين العربة، ويطل أبي في كل ديوان عسى أن يجد فيه مكاناً خالياً.. إلى أن نجد الديوان الذي يتسع لنا فندخل ونجلس، ويتحرك القطار في طريقه السعيد.. ويغلبني النوم فأغفل عما حولي بعض الوقت بتأثير الاستيقاظ المبكر والنوم المضطرب ليلة السفر، ثم أتنبه فجأة، فأجد أبي مشتبكاً في ماقشات حامية مع بقية ركاب الديوان، وبعضهم من المصريين.. والبعض الآخر من ذوي الوجوه المحمرة من الأجانب المقيمين بمصر، وتلقط أذناي كلمات غريبة من نوع الحكومة.. البرلمان. الوفد.. النحاس باشا.. الملك.. كريم ثابت.. الإنجليز.. نجيب الهلالي.. سعد باشا زغلول قال: لا فائدة!.. إلخ.

ويستقر في وجداني الرجال الكبار لا بد لهم حين يركبون القطار أن يتحدثوا عن أحوال البلد، ويتبادلوا الآراء في مستقبلها، وأستمع بإعجاب خفي إلى ما يبدي أبي من آراء.. وأجدني أؤيده فيها على طول الخط ليس لأنني أعي ما يقول وأؤمن به.. وإنما لأنه أبي .. ولا بد أن يكون رأيه هو الحق الذي لايأتيه الباطل من أمامه أو من خلفه.. ولهذا أضيق بمعارضة أحد الركاب بما يبديه أبي من رأي.. وأكاد أشتبك معه في النقاش، لأقنعه بما في رأي أبي من وجاهة.. ثم أرد نفسي عما ترغب مراعاة للموقف.. غير أنه تفلت مني ذات مرة كلمة «لا» تعقيباً على

اعتراض الراكب فيما قاله أبي، من أن الأحزاب قد أضاعت البلد بتطاحنها فيما بينها، بدلاً من أن توحد جهودها لإجلاء - الإنجليز عن مصر، ينظر إليّ أبي بحزم.. وأشعر أنا بالخجل الشديد، فأرجع إلى التزام الصمت ويبتسم الراكب المعارض، ويسأل أبي عن سني ومرحلتي الدراسية، ويقول لي إنه سعيد بتحمسي لتأييد أبي في آرائه، لكنه يطلب مني الاستماع جيداً للآراء المختلفة كلها دون تعصب ضد أي رأي.. لكي أحيط بكل جوانب الموقف قبل إبداء الرأي.. وأنظر إليه في خجل، وقد زال على الفور من نفسي ما شعرت به تجاهه من ضغينة عارضة، وأتعلم الدرس الذي صاحبني فيما بعد معظم سنوات عمري.. وهو أن أسمع أكثر مما أتكلم.. وأن أسمع جيداً وباهتمام، قبل التطوع بإبداء أي رأي.. وأن ألتزم الصمت في مجالس الكبار إذا أردت حقاً أن أتعلم منهم، وأستفيد من خبراتهم!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الـبـاب

نتناقل الخبر بقلوب تخفق بالخوف والأمل ظهرت نتيجة امتحان الشهادة الابتدائية القديمة ويجري الآن تسليم شهاداتها بفناء مدرسة النجاح الابتدائية التي تقع عند أحد أطراف المدينة، أهرول إلى أبي مصفر الوجه مرتجفاً وأبلغه بالخبر وأطلب منه مبلغ البقشيش الذي سأدفعه لفراش المدرسة، إذا صدق الظن وحصلت على الشهادة. في مثل هذا الموعد من كل سنة كان أبي يعطيني قبل الذهاب للمدرسة لاستطلاع النتيجة خمسة قروش أنفحها للفراش عقب النجاح «فيرفع» يده شاكراً، لكن أبي خرق المألوف هذه المرة وأعطاني عشرة قروش كاملة مراعاة لجلال الشهادة التي سأحصل عليها إذا قدر لي الفوز، هرولت مع صديقين لي تطوعا لشد أزري في هذا الموقف العصيب إلى المدرسة البعيدة ووصلت إليها لاهثاً، فوجدت سكرتير المدرسة يجلس إلى مائدة صغيرة في الفناء وأمامه الشهادات وإلى جواره الفراش، وحولها عدد من التلاميذ الصغار بين مبتهج بالنتيجة وباك منها، ورأيت كل تلميذ يقترب من السكرتير فيبلغه بنتيجته غير أنه يرفض أن يسلمه الشهادة إلا إذا نفح الفراش الواقف إلى جواره بقشيشه المناسب!

جاء دوري فتقدمت من السكرتير، فما أن رآني حتى هنأني بالنجاح فتنفست الصعداء وهدأت ضربات قلبي بعض الشيء ثم مددت يدي لأتسلم الشهادة فأشار إلى الفراش إشارته المفهومة، فأخرجت قطعة النقود الفضية وأنا أترقب ابتهاجه المتوقع بها وشكره عليها، فإذا به يرفض تسلمها مني مستنكراً، ويقول لي إنه لن يقبل أقل من ريال كامل «كحلاوة» للفوز بالشهادة الابتدائية، فأشعر بخجل الدنيا كلها ويتضرج وجهي بالاحمرار ويزيد من حرجي تدخل سكرتير المدرسة في الحديث لائماً ومعاتباً:

فعلاً يا ابني إنها الابتدائية بجلال قدرها! فكيف يكون البقشيش أقل من ريال؟

فأشعر ببعض اللوم في أعماقي تجاه أبي الذي لم يقدر الفوز الكبير الذي حققته حق قدره فوضعني سوء التقدير في هذا الموقف المحرج، وأفيق من ذهولي على صوت السكرتير يدعوني للذهاب إلى أبي لاستكمال المبلغ والعودة لتسلم الشهادة، فأنصرف محرجاً ومرتبكاً فلا يخفف من ارتباكي ما يؤكده لي الصديقان من أنهما قد رأيا بعض التلاميذ قبلي يعطون الفراش خمسة قروش فقط ويحصلون على الشهادة، ولا تفسيرهما لما حدث لي بأنه مجرد «جشع» من السكرتير والفراش اللذين يتقاسمان البقشيش سراً، وأرجع لأبي بالخيبة فيبتهج لنجاحي ويستاء لتصرف السكرتير والفراش الذي سيكبدني مشواراً للذهاب للمدرسة مرة أخرى، ويعطيني ما يشبع «جشع» الفراش والسكرتير وينتهي الموقف بسلام، ثم تسقط القصة كلها في بئر النسليان سنوات طويلة إلى أن تقفز للذاكرة بعد أكثر من 35 سنة، حين يحصل ابني على شهادته الابتدائية فأفاجأ بالهدايا و «النقود» تنهال عليه من أعمامه وعماته وأخواله وخالاته، وكأنما قد فاز بجزة نوبل في العلوم! ثم تزورني أمي رحمها الله رحمة واسعة وأحسن مثوبها ـ بعد نجاحه بأيام فتنفحه

مبلغا جسيامً من المال لا يتناسب مع قيم الشهادة نفسها بأي وجه من الوجوه، فأتذكر حالي حين حصلت على نفس الشهادة بلا احتفالات ولا نقوط، اللهم إلا ذكرى الموقف المحرج مع فراش المدرسة وسكرتيرها «الجشع»، وأعاتب أمي يرحمها الله على نفحتها المغالى فها لابني في هذه المناسبة، وأسألها عن دواعي المبالغة فيها وهي لا تعدو أن تكون الشهادة الابتدائية وليست درجة الدكتوراه، فتجيبني إجابة تلخص لي خبرة الدنيا كلها في كلمتين فتقول: لأنها «الباب» المؤدي لكل الشهادات بعد ذلك حتى الدكتوراه!

وأضحك للإجابة غير المتوقعة، وأتأملها طويلاً معجباً ومتعجباً، وأجدني أسلم بوجاهتها وحكمتها، غير أن صوت الطفل الصغير يستيقظ فجأة من الأعماق السحيقة فيتساءل: ولماذا إذن لم يحتفل «بنا» أحد كل هذا الاحتفال حين اجتزنا نفس هذا «الباب» وما تلاه من أبواب؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

القصـيرة

عُرفت بلقب «حميدة القصيرة».. لقصر قامتها الذي يلفت الأنظار.. بالرغم من أنها لم تكن «قزمة» بالمعنى المفهوم.

وعلى خلاف غيرها من الكادحات في بيوت الآخرين، كانت مالكة لبيت صغير يقع في الجوار القريب ورثته عن زوجها الراحل.. ولها حياتها كربة بيت، وأم لطفل يتيم تعوله عن طريق مساعدة بعض ربات البيوت في أعمالهن من حين لآخر.. فلا تخلو أذنها - بالرغم من بساطة الحال - من قرط ذهبي، ولا معصمها من سوار من الذهب من أثر العز القديم، تزور البيوت التي تتعامل معها في مواسم العمل «المكثف» بها، كيوم الخبز أو مناسبة زواج الابنة، أو عودة رب الأسرة من الحج، أو إقامة وليمة كبيرة للأهل والأصدقاء.. ناهيك عن المناسبات الحزينة التي تحتاج إلى المساعدة الخارجية.. **فتنهمك في العمل من الصباح حتى المساء، ثم ترجع إلى بيتها وطفلها.. لتعيش حياتها الأخرى كربة بيت محترمة.**

ولقد ارتبطت في ذهني أول الأمر بمناسبة المولد النبوي الشريف فقد كانت المكلفة بتوزيع الشربات الذي تعده أمي للمناسبة السعيدة - على السابلة عند مرور «الدورة» بنقطة التقاء شارعنا بالشارع الرئيسي للمدينة.. فتحمل الإناء الضخم، وتنتظر اقتراب الدورة وتزاحم الناس لمشاهدتها، فتملأ الأكواب وتهتف: اشرب وصل على النبي. ويتزاحم عليها العابرون.. فيرتوون ويشكرون.. وترجع هي في النهاية سعيدة بما وُفِّقت إليه.

أما «الدورة».. فقد كانت «كرنفالاً» شعبياً بسيطاً يقام في مدينتنا كل سنة احتفالاً بالمولد النبوي .. فيبدأ من أمام مركز الشرطة، ويمر بشوارع المدينة، وينتهي بالطواف عدة مرات حول مسجد سيدي إبراهيم الدسوقي.. وكان عبارة عن قول من سيارات النقل المكشوفة وعربات الكارو والحناطير.. يعرض فيه أبناء الحرف نماذج لأعمالهم وفنونهم.. فتمر سيارة نقل تابعة لأحد المقاولين يقوم العمال فيها بإقامة نموذج للشدات الخشبية التي تصب عليها الخرسانة.. وتمر سيارة ثانية تابعة لأحد تجار الفاكهة مزينة بأغصان الشجر التي تتدلى منها ثمار اليوسفي والبرتقال، ويلقى راكبوها بعض هذه الثمار على المارة احتفالاً بالمناسبة الشريفة، وتمر سيارة ثالثة تابعة لأحد التجار تعرض نموذجاً عملياً لصنع الأواني الفخارية، ويوزع عمالها ما ينتجونه أولاً بأول على المارة.. ورابعة لعمال النجارة والموبيليا.. وخامسة لتاجر أقمشة مزينة بتكوينات جميلة من الأقمشة والألوان الزاهية.. وهكذا.

وكانت «حميدة القصيرة» حلوة اللسان، خفيفة الروح، يلفت نظري في وجنتيها دائما أخدودان غائران.. غير أني ألحظ ذات يوم أن صفحة وجهها قد امتلأت، واختفى منها هذان الأخدودان!.. وأسأل عن السر، فأسمع همساً باسماً بأنها قد قامت بتركيب طقم أسنان جديد استعدادا لزواج قريب بعد طول ترمل.

وأشعر أنا بالإشفاق على ابنها الذي يماثلني في العمر، وأتوجس خيفة مما قد يصيبه لو لم يكن زوج الأم المقبل عادلاً ورحيماً.

غير أن الأمور تمضي إلى غايتها المقدورة.. وتختفي «حميدة» عن بيتنا بعض الوقت، ثم ترجع وفي وجهها بقايا زينة غابرة، وتنهال عليها مداعبات سيدات الأسرة ومناوشاتهن.. وهي تغالب خجلها، وتحاول رد السهام الموجهة إليها ولا يمضي وقت طويل حتى تتحقق الهواجس التي راودتني حين سمعت بخبر زواجها.. وأشهدها تشكو لأمي من سوء معاملة زوجها لطفلها وغيرته منه.. فضلاً عن تعطله شبه الدائم واعتماده عليها في نفقات الحياة، حتى في مصروفه اليومي بالمقهى!.. وتلوح لي النهاية الوشيكة لقصة الزواج المخيبة للآمال لكن الأيام تمضي و «حميدة» تشكو، ولا تبدو في نفس الوقت راغبة في إنهاء هذا الزواج أو التخلص منه!

وأسمعها ذات يوم تشكو لأمي من كثرة مطالب زوجها الذي يصغرها في السن المادية، وعجزها عن تلبيتها حتى لقد اضطرت لبيع مصاغها لتقديم ثمنه إليه..

ثم تجيء في يوم آخر مستاءة أشد الاستياء.. فتحكي عن خلاف جرى في المقهى بين زوجها وبين رجل من رواد المقهى، عيره خلاله الرجل بأن زوجته تنفق عليه، وبأنها قد باعت مصاغها من أجل ذلك.. وتشاركها أمي الاستياء لذلك، وتقول لها مجاملة: ليس هذا بحق من شيم الرجال قاصدة بذلك زوجها الذي يعيش عالة على كدها وعرقها .. فتؤيدها حميدة القصيرة بحماس.. وتقول: نعم.. نعم ليس هذا من شيم الرجال بحق.. لكن ماذا نفعل في حسد الحاسدين وغيرتهم؟! ويستغلق الأمر عليّ بعض الوقت.. ثم أتبين المفارقة بعد قليل!.. وهي أن أمي تلوم زوج «حميدة» الخائب على استنزافه نقود زوجته.. أما «حميدة» فإنها تلوم الرجل الذي عير زوجها بذلك، ولا تلوم زوجها المحبوب في شيء مهما يفعل!

وأحتاج أنا إلى سنوات أخرى من العمر لكي أفهم هذا اللغز الذي بدا لي غير قابل للفهم في حينه - ويتطلب ذلك مني خبرة أكبر بالحياة، وفهماً أعمق لأسرار النفس البشرية بصفة عامة.. ونفس المرأة على وجه الخصوص!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ثورة الغبـار

في طرف من أطراف أرض السوق نختار ملعبنا لخوض مباراة الكرة اليومية يشتد بنا الحماس، فتحمر الوجوه، ويتصبب العرق ويعلو الصياح.

نختلف على إحدى اللعبات، وهل هي خطأ يستوجب ضربة جزاء، أم من الخشونة المتاحة في اللعب الجاد.

ينهض كل فريق للدفاع عن وجهة نظر، ويقسم بأغلظ الأيمان على صحة موقفه.. ويتوقف اللعب مع تهديد الفريق المضاد بالانسحاب.. فيرد عليه الفريق الآخر بأن الانسحاب يعني في شرع اللعبة الهزيمة بستة أهداف كاملة، حتى ولو كان الفريق المنسحب فائزاً قبل توقف اللعب! وينصح عقلاء الطرفين بالاحتكام لأحد الكبار العابرين للمكان.. فنستوقف أول عابر بنا ونطلب حكمه، ونعيد تمثيل الواقعة أمامه.. وقد نتبادل خلال ذلك الاتهامات بعدم الأمانة في حكاية الموقف وتمثيله.. فيسمع لنا العابر في صبر، ثم يصدر حكمه العادل - ويكون غالباً حكماً توفيقياً يرضي الطرفين ويمضي إلى غايته مشكوراً، ونرجع نحن للتنافس الحار، ويستغرقنا اللعب فننسى المكان والزمان، إلى أن نفيق فجأة على صياح سيدة من الجوار القريب تلعننا وتصب علينا جام غضبها، وتهددنا بإلقاء الماء علينا إن لم نغادر المكان على الفور.. بدعوى أننا بلعبنا نثير الغبار على مسكنها الواقع في الدور الأرضي والمقابل لملعبنا.. ونرضخ لمطلبها صاغرين.. بالرغم من عدم اقتناعنا بذريعة الغبار هذه، لأن بيننا وبينها عرض الشارع، واتجاه الريح لا يخدم زعمها! ونبتعد عن مسكنها لمسافة كافية اتقاء لأذى لسانها.. لكن بعد المكان لا يمنع عيون الصغار عن مشاهدة ما تحرص على إبعادنا عن بيتها لكي لا نراه، ولا عقولهم من إدراك السبب الحقيقي لهذه الثورة المفتعلة! ومن ملعبنا الجديد نترصد بأبصارنا باب مسكنها المغلق إلى أن يفتح فتحة ضيقة، ويتسلل منه أفندي شاب من أفندية المدينة، فيسرع الخطى مبتعداً عن البيت.. فما أن يطمئن لابتعاده عنه قليلا.. حتى يمشي في تؤدة.. مصطنعاً الوقار والحشمة!

فنتبادل النظرات الخبيثة ونطمئن إلى أن «الغبار» لن يزعج السيدة الآن بعد أن أدى «دوره» كذريعة لإبعادنا عن مدخل بيتها لكي يخرج منه الأفندي مطمئناً إلى خلو الطريق من الناظرين.

ونستمتع بهدوء الحال إلى أن يطرق باب البيت طارق جديد، ثم تقترب لحظة خروجه، فتفتح السيدة الباب، وتصب جام غضبها علينا من جديد لكي نبتعد ونخلي الطريق من العيون.. ويخرج الزائر الآخر.. فالسيدة التي يزعجها غبار لعب الصغار.. تدير مسكناً للمتعة المحرمة، ويؤم بيتها بعض عزاب المدينة وطلاب الفجور!

وبالرغم من أن الكبار لا يتحدثون مع الصغر أبداً في مثل هذه الأمور، ولا يجيبون على أسئلتهم إذا تساءلوا.. فلقد أدركنا نحن الحقيقة بغير معلم، وتعجبنا مما يظنه بنا الكبار من الغفلة!

وفهمنا الأسباب الحقيقية لثورة الغبار هذه، وتعايشنا معها كأنها من طبائع الأمور!

وتواصلت اللعبة بيننا وبين تلك السيدة بلا انقطاع كل يوم.. فلا هي ملت ذات مرة زعمها لنا أننا نهيل عليها الغبار كلما احتاجت إلى الإفراج عن أحد روادها.. ولا نحن اقتنعنا لحظة احدة بزعمها المفضوح، أو خفي علينا سببه الحقيقي!

وأدهشنا ذات يوم أن رأينا من بين المتسللين من بيتها مدرساً لنا بالمدرسة الابتدائية.. كان ثقيل الظل على قلوبنا، وقاسياً في تعامله معنا ومتشدداً بلا رحمة معنا في كل ما يتعلق بأمورنا.. حتى كنا نخشاه ونتهيبه أكثر من غيره من مدرسي المدرسة.. فما أن رأيناه يتسلل من هذا البيت ذات أصيل بعد «دش» الغبار المعتاد فوق رؤوسنا.. حتى فقد اعتباره في نظرنا إلى الأبد

وتعاملنا مع **شدته معنا بعد ذلك بشيء كثير من الاستخفاف الداخلي.. فكأنما نقول له بغير كلام: «إلعب غيرها»!**

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لحظة الحسم

خلا البيت الملاصق لبيتنا من سكانه.

كان بيتاً صغيراً من دورين له في ذكرياتنا نصيب غير منكور.. فلقد «هاجرت» إليه أسرتي، وأقامت فيه عاماً وبعض عام خلال فترة هدم بيتنا القديم وإعادة بنائه من جديد وأقامت فيه من بعدنا أسرة أخرى، ثم انتقلت منه إلى مكان غير معلوم.. وسرى الخبر السعيد بأن من ستخلفها فيه أسرة من الأقارب الذين تربطنا بهم صلة حميمة...

أصغر أبناء الأسرة فتى يكبرني بعامين أو ثلاثة، تعثرت خطواته الدراسية فلحقت به في نفس الصف الدراسي وبروحه الممرورة شكا فعل الزمان به فقال، في سخرية اكتئابية: كنت أستذكر دروسي من قبل مع شقيقك الأكبر.. والآن أستذكرها معك.. فترى مع من من بقية الإخوة سوف أستذكرها غدا؟!

ولم أتوقف في البداية أمام «المرارة» التي تقطن أعماقه بالرغم من صغر سنه.. لكن الأيام سرعان ما أكدت لي أنها لم تكن عارضة ولا عابرة..

فلقد كان والده .. في زمن لم أدركه .. تاجراً ميسوراً .. ثم تعثرت تجارته واضطر إلى تصفيتها، وأصبح يعتمد في حياته على القيام بعقد صفقات تجارية صغيرة من البيت.. فانخفض مستوى معيشة الأسرة كبيرة العدد بعض الشيء، وكان الفتى الصغير هو أكثر أفرادها تأثراً بذلك فاكتست روحه في سن مبكرة بغلالة من المرارة والإحساس بظلم الحياة!

وحين انتقلت أسرته للإقامة في الجوار القريب، كانت الأسرة تعتمد في حياتها أو تكاد على عائد عمل الابن الأكبر.. ثم سرعان ما ودع الأب الحياة، وأصبح أكبر الأبناء هو عائل الأسرة الوحيد وكبيرها وتراكمت المرارة في نفس الفتى الصغير حتى استقرت في الحنايا .. وبالرغم من ذلك فلقد كانت له أوقات صفاء تلمع فيها لديه روح المرح والسخرية من كل شيء.. ومن ذكريات هذه الأوقات السعيدة أنه جاء إلينا - أنا وشقيقي الأكبر - ذات يوم وهو يتمايل من شدة الضحك، ويحمل في يده مظروفاً قديماً لرسالة عثر عليها بالمصادفة في أوراق أبيه، وحاول أن يقرأها علينا فلم يتمالك نفسه من الضحك، فسرت إلينا العدوى حتى من قبل أن نعرف ما يضحكه!.. أما الرسالة فقد كانت، بخط يد أبيه.. ومرتدة من البريد لعدم الاستدلال على عنوان المرسل إليه.. وقد عثر عليها الفتى بعد سنوات طويلة من ارتدادها، فوجدها مكتوبة باللغة العربية وبالقلم «الكوبيا» الذي كان يستخدمه التجار في ذلك الزمان، وتحمل على غلافها هذه العبارة:

«إلى جناب الخواجة فيليبس بهولندا».. وقرأ مضمونها فوجد أباه يشكو فيها مر الشكوى إلى «جناب الخواجة» من وكيل الشركة بالإسكندرية لتعنته معه في تعاملاته التجارية!

ولسنوات عديدة تصبح الرسالة الموجهة إلى جناب الخواجة فيليبس.. مثارا لضحكاتنا وسخرياتنا.. ورمزاً للأمل اليائس من تحقق العدل وانصلاح الأحوال!

وخلال تلك الفترة من العمر كنا قد شاهدنا فيلم «أمير الانتقام».. واستهوتنا منه وسيلة التواصل بين السجين «أنور وجدي» والسجين الآخر الذي يشغل الزنزانة الملاصقة له «حسين رياض» عن طريق الدق على الحائط المشترك بين الزنزانتين.. وكانت غرفة نوم الفتى تلاصق غرفة نومنا أنا وشقيقي، ويفصل بينهما جدار مشترك، فأصبح الطرق على هذا الجدار هو وسيلة التراسل بيننا وبينه.. فطرقة واحدة عليه معناها: كيف الحال؟، واثنتان معناهما دعوته إلى الإطلال من النافذة للتحدث معه عبرها، وثلاث معناها تفضل بالزيارة الآن.. وهكذا! وبمرور الأيام ازداد الاقتراب بيني وبين الفتى.. خاصة حين لمس كل منا في الآخر ميوله الأدبية أو الفنية.. فلقد كان الفتى موهوباً في الرسم ويكتب الشعر.. في حين كنت أتعثر أنا في محاولات التعبير عن النفس بالخطرات.. والشعر الحر.

وفى فترة الصبا تشكلت بعض ملامح شخصياتنا، وتحددت علامات الطريق الذي يحلم كل منا بالسير فيه.. فلقد.. فلقد تطلع الفتى لدراسة الفنون الجميلة والتفرغ للفن، وحلمت أنا بدراسة الصحافة واختيارها طريقاً لي في الحياة.

وحين حصلنا على الثانوية جاءت لحظة الحسم والاختيار.. وأراد الفتى أن يتقدم بأوراقه إلى كلية الفنون الجميلة بالإسكندرية.. لكن شقيقه الأكبر فضل له أن يلتحق بكلية التربية البدنية، لأن الدراسة بها أقل أعباء منها في الفنون الجميلة، كما تتضمن الإقامة الكاملة فيها! وكتم الفتى الممرور مشاعره ورغباته، وأظهر الاقتناع بوجهة نظر أخيه عائل الأسرة.. وكان شديد الحساسية تجاهه بالرغم من طيبته. وأعد ملف أوراقه للتقدم به لكلية التربية البدنية، وسافر مع شقيقه ليقدمها، إليها.. وفي الكلية مد الفتى يده بأوراقه إلى «المسجِّل».. وتسلمها منه الرجل بالفعل.. فإذا ببركان المرارة والشعور بالظلم ينفجر فجأة في أعماق الفتى فيمد يده مرة ثانية إلى «المسجِّل» ويجذب منه أوراقه بقوة، ويعلن لأخيه الواقف إلى جواره وقد اكتسى - وجهه لأول مرة بالإصرار - أنه لن يقدمها إلا لكلية الفنون الجميلة!

وتكهرب الجو للحظات.. ودهش «المسجِّل» لما يجري أمامه.. غير أن الأخ الأكبر - وكان طيب القلب - سرعان ما يستوعب الموقف ويسلم له برغبته، ويصحبه إلى «الفنون الجميلة» ليقدم أوراقه فيحدد الفتى بذلك مصيره.. ويعين أقداره عليه!

فلقد التحق بالكلية التي تمنى الالتحاق بها، وأمضى عامه الأول بها في هدوء يخفي وراءه ناراً تحت الرماد.. ووقع في غرام زميلة له من النظرة الأولى، وأحبها في صمت حبا قاهراً مذلاً، لم تستجب له الفتاة، ولم تستشعر خطورته.. فإذا بالقشرة الظاهرية للتوازن النفسي لدى الفتى تنكسر فجأة، وإذا به ينهار نفسياً وعصبياً من أثر التفاعلات المضطرمة في أعماقه على مر السنين.. فيدخل طوراً من «التيه» أو الانهيار النفسي، يعالج منه لفترة طويلة، ويخرج منه وقد

ترك على شخصيته بصمات غائرة صاحبته بقية العمر وحرمته للأسف. -... من حق التعيين كمعيد بالكلية بالرغم من تفوقه، فيعمل خبيراً فنياً في أحد قصور الثقافة، ويمضي حياته المضطربة في وحدة كاملة في مرسمه بالقصر ويبدع أعمالاً فنية جميلة تكتسي كلها بروح التشاؤم والاكتئاب، ويكتب أشعاراً جميلة تضيع في بئر الإهمال.. ويلتف حوله بعض الشباب الذين يؤمنون بموهبته، ويعجبون بحياة «الرهبنة الفنية» التي يعيشها!.. ويسرف هو في التدخين بشراهة عجيبة ليل نهار مع الأرق المزمن، وعدم الاهتمام نهائياً بالتغذية والصحة.. فتنطفىء شمعته فجأة وهو في الثلاثينيات من العمر.. ويرحل عن الحياة وحيداً ممروراً.. وتبقى لمحات الفن والإبداع، والروح الساخرة الممرورة تذكر به محبيه وعارفي قدره من النقاد إلى الأبد يرحمه الله ..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

البحث عن السعادة

في أحد أطراف المدينة مساحة أرض مسورة بسور من الأسياخ الحديدية، لها مدخل تعلوه لافتة قديمة تحمل عبارة: «شركة الأسواق الإنجليزية».. نتأمل ونحن صغار اللافتة ونعجب لكلمة «الإنجليزية» هذه، وتثير لدينا مخاوف غامضة، في زمن كان الإنجليز يحتلون فيه بلادنا.. غير أننا لا نرى إنجليزا في المكان، ولا نصادف أية قبعة! ونفهم بعد حين أن المساحة مؤجرة لهذه الشركة، لكي تقام عليها سوق المدينة يوم الخميس من كل أسبوع..

ونعرف بالتجربة أن بشائر السوق تبدأ مع مساء يوم الأربعاء، حيث يتوافد على المكان بعض المزارعين وتجار الريف ليبيتوا ليلتهم فيه استعداداً لمعركة البيع والشراء التي تبدأ في الصباح الباكر.. وفي الصباح يزدحم المكان الذي يظل خالياً طوال الأسبوع - بمئات من الباعة والمشترين، وعشرات الماشية والدواجن والغلال.. إلخ ويجلس في مدخل السوق موظفان بالشركة الإنجليزية من أهالي المدينة ينظمان دخول الرواد، ويتقاضيان عن كل رأس ماشية تدخل السوق أجراً محدداً، ويقطعان التذاكر، ويتجادلان التجار مع الذين يرغبون في تخفيض القيمة.. إلخ.

ولأن الحاجة هي أم الاختراع.. فلسوف يتحايل بعض الرواد على دخول السوق بغير دفع ثمن التذكرة لحيواناتهم، فيخلعون بعض قوائم سور السوق في طرف بعيد.. ويتسللون منه بحيواناتهم الصغيرة!

وفي داخل المكان يلتقي الباعة والمشترون.. ويحتدم الجدال بينهم، ويتدخل الوسطاء للتوفيق بين الطرفين لقاء أجر معلوم.

ويصل زحام السوق إلى ذروته عند الظهيرة، ثم يبدأ في الانحسار، إلى أن ينتهى تماما عند الأصيل.. ويغادر المشترون السوق بما اشتروه، ويرجع من لم يحالفه الحظ في بيع تجارته إلى قريته... وهو يتعلق بالأمل في حظ أفضل خلال «موقعة» الأسبوع المقبل!

ويخلو المكان تماماً من رواده، وتبقى وراءهم مخلفاتهم من بقايا الأشياء، وتصبح أرض السوق بقية أيام الأسبوع، ملعباً للصغار، وميداناً لتدريب فريق المدينة لكرة القدم - الذي يزخر بالنجوم الساطعة في سمائنا!.. ويظهر بمجرد انتهاء السوق عند الأصيل رجل نحيل طويل.. هادىء مهذب.. لا يكلم أحداً، ولا يسمع له أحد صوتاً.. يذرع المكان ببطء شديد وهو عاقد ذراعيه خلف ظهره، مسدداً بصره إلى الأرض، كأنما يبحث عن شيء سقط منه.. فيقطع أرض السوق شمالاً وجنوباً، وشرقاً وغرباً في صبر عجيب، وعيناه لا تفارقان الأرض.. ثم ينصرف إلى حال سبيله!

ولبقية أيام الأسبوع بعد ذلك سوف يظهر هذا الرجل في المكان، أصيل كل يوم، فيتجول ببطء، عاقداً ذراعيه خلف ظهره، ومدققاً النظر في الأرض كأنما يبحث

عن شيء لا يجده أبدا.. إلى أن تحل عتمة المغرب، وتضعف الرؤية، فيرجع من حيث أتى.. وهكذا.. أسبوعاً بعد أسبوع، وشهراً بعد شهر، وعاماً بعد عام.. فلا نشهده يوماً يعثر عما يبحث عنه أو يأمله.. ولا نراه ييأس أبداً من البحث وتدقيق النظر في الأرض!

وبفضول الصغار نتساءل عما يبحث عنه هذا الرجل الغريب ويتجرأ أحدنا ذات يوم فيتقدم منه سائلاً:

_ يا عم.. ما الذي تبحث عنه؟!.. هل سقط منك شيء؟!! فينزعج الرجل للسؤال في البداية.. ثم يسارع بالإجابة في أدب: -

_ أبداً.. إنما أنا أتمشى فقط!

فلا تقتنع عقولنا بهذا الادعاء.. ويثير انزعاجه للسؤال لدينا الإحساس بأنه يتخفى بما يفعل، ولا يريد أن يطلع عليه أحداً.. ويتطوع البعض بتفسير بحثه الأبدي عن شيء لا يجده أبداً، فيقول لنا: إن هذا الرجل كان قد عثر في الأرض عقب انفضاض السوق ذات منذ عدة سنين على مبلغ من المال سقط خلال الزحام من أحد التجار، فالتقطه واعتبره غنيمة له ومنذ ذلك الحين وهو يعاود البحث في الأرض عقب كل سوق، عسى أن يتكرر الحظ السعيد، ويعثر مرة أخرى على مبلغ آخر أو قطعة ذهبية أو أي شيء له قيمة فلا يجد سوى العدم، ولا ينقطع في نفس الوقت أمله في العثور على كنزه المنشود!

وبروح المشاغبة يتندر عليه الصغار ويتهمه البعض بالخبل والجنون.

غير أن الأيام تمضي في طريقها المحتوم، وتنضج العقول الصغيرة، وتخوض تجربة الأيام.. فأجدني على الكبر أتذكر هذا الباحث الدائم في مواقف عديدة من مواقف الحياة.. وأقول لنفسي: ما أشبه الإنسان في بحثه الأبدي عن سعادته - التي لا يجدها أبداً - بهذا الرجل النحيل الطويل الذي كان يذرع أرض السوق في مدينتي الصغيرة كل أصيل!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

السـؤال

يتخذ أبي قراراً عائلياً خطيراً بأن تكتفي شقيقتي الكبرى بما نالته من تعليم، وتحتجب في بيتها لتتلقى تدريبها الأهم على الحياة العائلية انتظاراً للنصيب المقدور. أسمع الخبر فأغبط أختي في أعماقي على تحررها من سجن المدرسة، لكني أشفق عليها في الوقت نفسه من أن كون هذا القرار محبطاً لطموحها الدراسي. وأشعر بعد قليل بالاطمئنان حين أراها على عكس المتوقع سعيدة بهذا القرار وراضية عنه بالرغم من تفوقها المدرسي الملحوظ.. وتترامى إلى الأنباء أن أحد مدرسيها واسمه «موريس أفندي» قد انزعج كثيرا لانقطاعها عن الدراسة، مما سوف يحرم المدرسة من إحدى الناجحات في امتحان الشهادة القريب، وأنه سعى إلى مقابلة أبي في تجارته، وحاول إقناعه بالعدول عن هذا القرار لكيلا تفقد المدرسة تلميذة نجيبة ترفع نسبة النجاح في الشهادة الموعودة، لكن أبي يشكره على اهتمامه ويعتذر له برقة عن عدم الاستجابة لرجائه لظروف عائلية.. فيرجع الرجل حسيراً، وتتوقف شقيقتي الكبرى عن الدراسة، لكنها لا تتوقف عن القراءة، ومن ذلك اليوم يصبح عالمها هو الراديو والمطبخ ومجلة «الكواكب» الشهرية في ذلك الحين، ومجلتي «المصور» و «الاثنين» الأسبوعيتين، والجلسات العائلية الطويلة مع أمي، واستقبال الصديقات، وممارسة فنون الطهي والشئون المنزلية وعن طريقها أتعرف على العالم المسحور للمجلات الشهرية والأسبوعية. وأعرف أن هناك نوعاً آخر من الكتب غير الكتب الصفراء الكبيرة التي يحوزها أبي، وكلها تفاسير للقرآن أو كتب للحديث. وأتعجب من أن يكون هناك كتاب ثمنه خمسون قرشا دفعة واحدة، فأقلبه في يدي متعجباً، وأقرأ عنوانه: «فن الطهي» من تأليف «أبلة نظيرة نقولا» فيرسخ اسم المؤلفة وكتابها في الذاكرة كأنما يتحديان النسيان! وتسهم شقيقتي هذه من حيث لا تدري في تحديد مصيري بفتحها لي أبواب عالم القراءة السحري في سن مبكرة.

وتمضي السنوات ويتحدد المصير.. فأتساءل: ترى هل أحسنت إليّ شقيقتي حين قادتني إلى عالم المعرفة المضني .. أم أساءت؟! وأتأمل السؤال متعجباً.. وأظل عاجزاً - رغم مرور السنين - عن الجواب!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

النوم

كان يبدو دائماً نائماً أو كالنائم! عيناه نصف مغلقتين كأنما يثقلهما النعاس.. كلماته بطيئة كأنما ينتزعها من فمه انتزاعاً، وصوته خفيض وفاتر كأنما يهمهم به لنفسه ولا يعنيه أن يسمعه أحد، لا يسعىلصداقة أحد .. ولا يصد عنه أيضاً من يرغب في صداقته.. نشك- بالرغم من صغر أعمارنا في أن يكون نعاسه وفتوره راجعين إلى ما نسمع عنه من أثر المخدرات على من يتعاطاها.. لكن اقترابنا منه يكشف لنا براءته من التهمة.. فحتى السيجارة التي يدخنها التلامذة الفاسدون سراً في دورة مياه المدرسة هو بعيد عنها.. ونسلم في النهاية بأنها طبيعته الفاترة التي لا يحركها شيء مما يحرك الصبية في مثل سنه، ولا يثيرها شيء.. ونعرف أيضا أنه واحد من هؤلاء الغرباء الذين تحمل حركة التنقلات الحكومية آباءهم إلى مدينتنا، فيقضوا بها بضع سنوات ثم..... يرحلون عنها، وإن له أختاً تقاربه في العمر وتذهب إلى مدرسة البنات.. وأخاً أكبر يدرس في العاصمة... ولا تلمع عينا هذا الفتى بعض الشيء إلا إذا تحدث عنه.. فهو بالنسبة له المثل الأعلى في كل شيء.. في الجسم الرياضي والأناقة.. وحسن التصرف.. والمستقبل اللامع الذي ينتظره.

وفيما عدا ذلك فهو فاتر الروح على الدوام وقليل الحماس للأشياء فحتى الفتيات الصغيرات اللاتي نتابعهن نحن بنظراتنا المتلهفة وتطلعاتنا المحرومة لا يثرن اهتمامه.. ولا يجتذبن نظراته، وأسعد أوقاته - كما يقول لنا - هي التي يقضيها في النوم.. سواء في بيته.. أو في المدرسة .. لهذا فلقد استحق بجدارة اللقب الذي أطلقه المشاغبون عليه وهو «فلان النوام»!.. وشيئاً فشيئاً استقر اللقب في الأذهان حتى أصبح علامة عليه، فلا يذكر اسمه إلا متبوعاً به، وسمعه تلاميذ جدد انضموا إلى دائرتنا يتردد على ألسنتنا فظنوه اسم عائلته.. ونادوه به فأثاروا ضحكاتنا.. ولم يغضب هو وإنما انتزع من تقاطيع وجهه ما يشبه الابتسامة وهو يهمهم: أغبياء!

ويقضي فلان النوام معنا ثلاث سنوات أو لعلها أربع، ويختفي من المدينة مع أسرته، كما يختفي منها الغرباء عند صدور حركة الترقيات. وتصلني منه على المدرسة رسالة واحدة من بضعة سطور يقول لي فيها إنه التحق بمدرسة بنباقادن الثانوية بالقاهرة وأنه يفتقد جو مدينتنا الصغيرة ومدرستنا وشلتنا.. ويشكو من أنه لا يعرف أحداً في المدرسة الجديدة ولا يعرفه أحد، ولهذا فهو يمضي معظم وقته فيها نائماً!

وأضحك للرسالة طويلاً وأعرضها على الأصدقاء.. وأتذكره بحنين غريب.. ثم تمضي الأيام فتنقطع عني أخباره ويسقط في هاوية العدم والنسيان..

أغادر مدينتي إلى العاصمة كما غادرها وأنهي دراستي الجامعية وأعمل بالصحافة سنوات طوالاً، ثم أركب الطائرة ذات يوم في رحلة عمل فأنشغل بما أقرأه لفترة طويلة.. إلى أن أتنبه على يد المضيف تلمس كتفي وصوته وهو يقول لي: إن

«الكابتن» يبعث إليّ بتحياته ويدعوني إلى فنجان من القهوة في كابينة القيادة، وأسأله عن اسم هذا الكابتن فيردد على سمعي اسما لا معنى له.. فأشكره وأعده بالذهاب إليه بعد قليل.. وأرجع للانشغال بما كنت أقرأه فيعود المضيف ثانية ليكرر الدعوة.. وأضع الكتاب وأنهض معه وأنا أتساءل عن هذا «الكابتن».. الذي لا أعرفه ويصر على دعوتي إلى كابينة القيادة.. وأدخل الكابينة فأرى وجهاً يتطلع إليّ بنظرة ناعسة يخالطها شيء يشبه الابتسامة. وأشعر للوهلة الأولى بأنني قد رأيت صاحبه من قبل، لكني لا أعرف متى رأيته ولا أين؟ ويسألني هو في هدوء غريب.. وفتور لا يتناسب مع الموقف: ألا تتذكرني؟ فأستغرق حائراً في التفكير دون أن تلوح بارقة أمل، ثم تلمع الذكرى فجأة.. فأتذكر الشخص، لكن هيهات أن يطفو على السطح من اسمه إلا ذلك اللقب المعيب الذي كنا نطلقه عليه.. فأقول له مترددا: أنت أنت! ثم يعجز لساني عن النطق باللقب مراعاة لواقع الحال ووجود مساعد الطيار، لكنه يكمل هو الجملة الناقصة بنفس الهمهمة القديمة قائلاً: النوام! هل تخجل من النطق بالكلمة؟

وأنفجر أنا ضاحكاً ومبتهجاً.. أما هو فإن أقصى انفعال باللحظة بدا عليه هو أن سرت في وجهه الابتسامة غير المرئية.. وروى لي أنه رآني في مقعدي بالطائرة وهو في طريقه إلى الكابينة وعرفني على الفور، واعتزم أن يدعوني إلى فنجان قهوة بعد الإقلاع.. وراح يسألني عن أصحاب زمان ويطول بنا حديث الذكريات ونتبادل أرقام التليفونات والعناوين، وأعرف منه أنه متزوج وله ابنة اقتربت من الشباب ويتفضل بالثناء قائلاً إن زوجته وابنته تتابعان باهتمام ما أكتبه.. ولا تصدقان أننا كنا صديقين وزميلين خلال الدراسة.. وأسعد كثيراً بالحديث إليه والسماع منه، ويمضي الوقت كالبرق، ثم تغلبني روح المشاغبة، فأسأله: وكيف تشبع هوايتك القديمة في النوم وأنت مسئول عن قيادة هذه الطائرة وأرواح الركاب الذين تحملهم؟

فيجيبني بلهجته الساخرة القديمة، وأنا أتهيأ للعودة إلى مقعدي: ألم تسمع عن الطيار الآلي الذي يقود الطائرة بعد الإقلاع.. فيتفرغ الكابتن لما يشاء من أعمال؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

التحـدي

يسمع الصبي وهو في منزله أصوات رفاق الشارع وهم يتجادلون بعنف، فيعجب لهذا الخلاف المبكر ولم يكد يبدأ النهار.. يستعد للخروج ليسأل الرفاق عما أثار خلافهم الحاد هذه المرة.. فيخيل إليه أنه اسمه يتردد على ألسنتهم، فيرهف السمع متهيباً أن يكون قد أحدهم قد أقحمه في الخلاف الذي لم يشهده أو افترى عليه قولاً مسيئاً لم ينطق به ويسرع بارتداء الحذاء ليستكشف الأمر، فيسمع هذه العبارة الغريبة وهو يقترب من الباب: أتظنه حقاً عصياً على الضرب؟ سأثبت لك عكس ذلك في أقرب فرصة.

يشعر بأنه مطالب بإطفاء الحريق قبل أن تندلع شرارته وتتسع، فيحشد كل قدرته على التهدئة ولم الشمل ويخرج إلى الشلة محيياً ومناشداً الجميع بصوته الرفيع أن يتذكروا ما يجمعهم من مودة ورفقة.. فيفاجأ بالوجوه المتجهمة الصامتة.. والعيون المتقدة بالغضب، يحاول تلطيف الجو المتوتر، فيتجه إلى أقربهم إلى قلبه.. وأكثرهم التصاقاً به حتى عرفا بين الجميع بصداقتهما الحميمة، ويسأله عما حدث.. فيفاجأ به ينظر إليه نظرة غريبة، ثم يقول له وكأنها يزف إليه بشرى خبر سار:

- إن شاء الله سوف تنال اليوم مني علقة ساخنة!.

يعجب للقول غير المتوقع ويحار.. هل يعتبره مزحة فيضحك لها.. أم مكيدة يدبرها الرفاق له؟!

ويتساءل: ماذا تقول؟

فيكرر: ستنال اليوم علقة ساخنة

يتلفت حوله ليرى أثر «المزحة» في وجوه الرفاق فيراهم جامدين لا يضحكون فيعرف أنها ليست مزحة.. وإنما الغدر الذي لا يعرف له سبباً.. ويصدم في مشاعره صدمة مزلزلة.. لكنه لا يفقد الأمل في أن ينكشف الأمر في النهاية عن دعابة سخيفة، سوف يعاتب صديقه بشدة على مشاركته فيها ويهم بالتحرك مبتعداً عن الشلة فيلاحقه صوت الصديق الغادر: في ملعب الكرة عند الأصيل! فيعرف أنه يحدد له أرض المعركة المقبلة وموعدها؛ إذ جرت العادة ألا تجري هذه المعارك إذا جرت أمام بيوت المتعاركين لكيلا يتدخل الأهل.. وتتسع النيران، ويمضي حزينا ومهموما، ويلحق به أصغر أفراد الشلة وأكثرهم ميلاً للمسالمة.. فيمشي إلى جواره وتسري روح التعاطف الصامت في الجو.. فيسأله الصبي عما أستحق به هذا الغدر من جانب أقرب الرفاق إليه، فيجيب بأغرب إجابة يمكن أن يتوقعها المرء في مثل هذه الأحوال ويقول له: إن الحديث قد بدأ عادياً بين صبيين راحا يستعرضان «قوة» كل فرد من أفراد الشلة، ويرتبان أفرادها في سلم الفتوة والقدرة على الدفاع عن النفس، فجاء ذكره بين من ذكرهم الصبيان.. واختلفا حول تقييم قوته.. فرشحه أحدهما لأن يكون من الطبقة الأولى وأصر الصديق،

على أنه من محاربي الطبقة الثانية.. وطال الجدل حول ذلك فتملك الحمق الصديق المقرب، وأعلن أنه سيضرب صديقه ويدميه ليقنع الآخر بصدق تقييمه لقوته.

وهكذا تلقت الصداقة الطعنة الغادرة ولسبب يثير الحزن أكثر مما يثير الضحك، وتمضي ساعات النهار بطيئة ويلتقى المتحدى مع من فرض عليه القتال بلا سبب وسط حشد من الصغار.. فيبدأ الصديق الغادر الصراع غير مراع لأي اعتبار ويحمل على صديقه السابق بشدة غير مبررة ويصمد الصبي المغدور به للنزال مكتفياً في البداية بتفادي الضربات وتجنب إيذاء خصمه.. لكن الآخر يندفع في الحماقة.. ويضاعف من الأذى فيضطر لمبادلته الضرب ويلحق به ضربات موجعة.. ويستمر النزال طويلاً دون أن تلوح في الأفق أية بادرة على احتمال حسم المعركة ويتحرك أخيرا حكماء الشلة.. فيتدخلون لصالح أحد الطرفين للفصل بين الصديقين المتصارعين، ويحكمون لهما بالتعادل في القوة، ويلعق كل طرف جراحه وهو يتفادى النظر في عين خصمه.. ويقترح أحد الحكماء اعتبار الأمر وكأن لم يكن، ويطلب من الصديق المغدور به أن يصفح عن صديقه السابق ويعيد مياه الصداقة إلى مجاريها بينهما.

فيتحسس الصبي المغدور به شفته المجروحة.. ويشعر بأن جرحها سيطيب خلال يومين أو ثلاثة، أما جرح القلب بسهم الغدر والخذلان فلسوف تمضي أيام طويلة قبل أن يندمل أو يطيب!

وتجري القصة بعد ذلك مجرى الأمثال عما يمكن أن يفعله الحمق والغدر بالصداقة، وعن الصراعات الدامية التي يمكن أن تنشأ فجأة بين البشر لأتفه الأسباب!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الكنـز

في أحد الشوارع المتعامدة على شارعنا تحل أسرة وافدة للإقامة في مسكن حقير بالدور الأرضي، تلفت الأسرة منذ اليوم الأول لانتقالها إلى الشارع أنظارنا بجمال ربتها وبدانتها ولون بشرة كل أفرادها الناصع البياض والذي يشي بأصلها التركي أو الشركسي، كما يلفت أنظارنا أيضاً التناقض الواضح بين جسم الزوج النحيل للغاية وبدانة زوجته، تتسرب الأخبار بأن الرجل يعمل «كاتب حسابات» ويستعين على كتاباته (حساباته) بمسك الدفاتر لعدد من تجار المدينة والقيام بإجراءات الضرائب عنهم مقابل مبلغ زهيد سنوياً.

يطلق بعضنا العنان لخياله المحموم، فيزعم أنه قد رأى وهو يمر أما سكن الأسرة مصادفة، ربة البيت الجميلة في ملابسها المنزلية وابنهاره بلون بشرتها الوردي وكنز صدرها الريان، ويلهبنا الخيال فنكرر المرور أمام البيت عسى أن تترفق بنا الأقدار فتتيح لنا نظرة مترعة منها وهي في هذا الحال.. فلا نرى منها سوى التحفظ والكبرياء، ونلحظ على العكس مما نتوقع رقة حال الأسرة وتقشفها، ويتطوع أحدنا بتعليل ذلك بضآلة دخل عائلها وكثرة الأبناء، لكن ذلك لا يقلل من حظه السعيد في الحياة، فالرجل يمضي في طريقه مغتبطاً بأسرته ومحسوداً من الجيران على كنزه الثمين الذي لا يقدر بمال وهو جمال زوجته.. وتتناثر الحكايات فنعرف أنها عصب الأسرة ورجلها الحقيقي.. فالأبناء يهابونها بشدة وزوجها لا يملك من أمره معها شيئاً.. وعند الخلاف تتحول الأنثى الجميلة إلى نمرة شرسة وتتطاير الحمم من بركانها ويلوذ الرجل بالصمت العاجز.. ويسعى للاسترضاء.

وتنتقل الأسرة من الشارع القريب إلى مسكن أفضل في شارع بعيد، وتختفى السيدة الجميلة عن أنظارنا.. لكن أحد الرفاق وقد كان أكثرهم ميلاً لإساءة الظن بالنساء الجميلات بصفة عامة.. ينقل لنا أخباراً عجيبة.. فيقول لنا نقلاً عما استرق السمع إليه في مجلس أبيه: إن أحد التجار من هواة العشق والمغامرة قد سمع عن «كنز» الكاتب البائس فقربه إليه.. وغمره بعطاياه.. واطمأن الرجل إليه.. ودعاه إلى بيته.. فما أن رأى الكنز المستور عن قرب حتى فقد رشده.. وضاعف من هداياه للأسرة السعيدة واختلق المناسبات اختلاقاً لكي يزور كاتبه في بيته محملاً بالهدايا، ولم يغب عن ربة الأسرة مقصده من الوهلة الأولى، ورضيت عن تلهفه عليها أو لعل قسوة الحياة قد دفعتها لكيلا تصده عنها أملاً في مساندته لأسرتها في المستقبل.. فأطالت فترة المرأودة والمناوشة حتى كاد العاشق ييأس من بلوغ الأمل.. واستعانت خلال ذلك بعطاياه السخية على تعليم أبنائها.. وقبل أن يقبض يده قانطاً أضاءت له الضوء الأخضر.. فتهالك عليها وبدأ مسكن الأسرة يستقبل العاشق في زيارات دورية يكون الزوج خلالها مكلفاً دائماً بعمل يقوم به في تجارة العاشق، والأبناء يلعبون في الشارع، أو مبعدين بالأمر عن البيت، وشهدت الأسرة عهداً جديداً من الرخاء والأمان لم تعرفه طيلة حياتها.. وشق الأبناء طريقهم في التعليم بلا توقف أمام الأعباء، وكعادة شارعنا

في تجنب الخوض في الأعراض.. فهم الكثيرون ما يجري حولهم.. لكنهم فضلوا الإبهام والغموض إذا اضطروا للإشارة إليه.

واستقر الحال على ما هو عليه سنوات طوالاً، وكبر الأبناء وعملوا، ومات الأب وتوقع العارفون أن يتوج العاشق قصته الطويلة مع معشوقته بالزواج منها؛ خاصة أنها لم تفقد بالرغم من كبر السنين جمالها الساحر، لكنه لم يفعل.. وقبل أن يتعجب البعض لذلك جاءت التفسيرات متناقضة من أكثر من اتجاه، فقال الرواة: إن الأرملة، الجميلة... ما أن مات عنها زوجها حتى أغلقت الباب في وجه العاشق القديم.. ورفضت السماح له بزيارتها، وطالبته بعدم التردد عليها بدعوى الاحتشام في أواخر العمر، كما رفضت أيضاً الزواج منه، وبررت له ذلك برغبتها في ألا تحرج أبناءها الذين بلغوا سن ا الشباب، وقال آخرون: بل إن الرجل هو الذي رفض الزواج منها لإحساسه الباطني بعدم الاطمئنان إليها وهي التي عرفته وهي زوجة لغيره؛ فضلاً عن عجزه أيضاً عن مواجهة أبنائه الكبار بمثل هذه المصاهرة التي لا ترضيهم، ولهذا غضبت منه المرأة وقطعت علاقتها به.

وقال راو منصف: إن المرأة لم تكن من الأصل راضية عما اضطرت إليه بحكم الحاجة وقسوة مطالب الحياة وأعباء تعليم الأبناء وهم هدف حياتها.. فما أن شقوا طريقهم في الحياة حتى شعرت بأن حجراً هائلاً قد انزاح عن صدرها.. وفضلت أن تضع الخاتمة الضرورية للقصة الطويلة وترجع للحياة الآمنة بلا خوف من المجهول ولا ترقب لانكشاف الستر.

وأيا كانت المبررات فلقد عاشت هذه السيدة سنواتها الباقية من العمر.. كأرملة محتشمة، ومات العاشق بعد حين شبه مفلس بعد أن أنهك التهتك تجارته، وصارت القصة بكل فصولها من تراث العشق الآثم لشارعنا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

المشـــــروع

يخرج علينا أحد أعضاء الشلة باقتراح حكيم هو أن يدفع كل فرد منا قرشاً واحداً لكي نجمع مبلغاً يسمح لنا بالتقاط صورة جماعية ، تصبح تذكاراً أبدياً للشلة. يتحمس الصبية للاقتراح الحكيم ويدفعون ويبدي ذوو اليسار أريحية مشكورة فيتطوعون لإكمال نقص من يعجزون عن دفع القرش كاملاً.. فيدفع بعضهم قرشاً ونصف القرش.. ويتهور البعض الآخر فيدفع قرشين كاملين.. ويحصي رئيس الشلة القروش في يوم مشهود ومن حوله الرفاق، فإذا به يقارب الخمسة عشر قرشا.. ونشعر بأن الوقت قد حان للخطوة المرتقبة، فنتجه في مسيرة جماعية إلى استوديو التصوير، ويذهب الرئيس ووكيله ليعبرا لصاحب الاستوديو عن رغبتنا، ونترقب نحن النتيجة فيرجع الرفيقان محبطين ويصدماننا بأن المبلغ لا يكفي لالتقاط صورة ولو حتى بكاميرا التصوير التقليدية القديمة التي يدخل المصور رأسه في أستارها السوداء.. ذلك أن أقل مبلغ يسمح بتحقيق الأمنية هو عشرون قرشا، ويتبادل الصغار الرأي في المشكلة، وتتعدد الاقتراحات.. فيقترح أحدهم أن يرجع كل صبي إلى أهله محاولاً انتزاع أي مبلغ منهم ولو كان مليماً أو مليمين ويقترح آخر أن يزعم أحد الصبية أنه قد سقط منه شلن أعطاه له أبوه لشراء شيء للبيت.. ويصرخ ويولول في الطريق العام مشفقاً مما ينتظره من عقاب رادع من أبيه إذا عاد إليه بالخيبة إلى أن ترق له قلوب المارة من فيتطوعون لجمع المبلغ المفقود وإعطائه له بل ويغالي أحدنا فيقدم اقتراحاً عجيباً هو أن يتوجه بؤساء الشلة ممن يرتدون الملابس شبه المهلهلة إلى مسجد سيدي إبراهيم الدسوقي ليمارسوا الشحاذة أمامه إلى أن يجمعوا المبلغ المطلوب، لكن الرأي يتفق في النهاية على رفض كل هذه الاقتراحات لعدم جدواها من الناحية العملية. وينتصر رأي يطالب بالانتظار إلى أول الأسبوع المقبل حتى يقبض ذوو اليسار من أعضاء الشلة مصروفهم.. ويقبض بعض الكادحين الذين يعملون منهم في الحرف أجرهم الأسبوعي فيقتطعون نصيباً منه لصالح مشروع الصورة. وتهم الشلة بالانسحاب يائسة، غير أن صبياً اتسم بين الجميع دائما بالجرأة المعنوية يقتحم الاستوديو بجلبابه المهلهل ويقول لصاحبه بجسارة: لماذا لا تصورنا وتقبل ما معنا من نقود.. ونحن لا نملك غيرها؟

ينظر إليه الرجل متعجباً للحظات، ثم لا يلبث أن يبتسم ويشير برأسه علامة على الموافقة، ويدعونا الولد الجريء إلى الدخول منتصراً.. ونتراص في فناء سماوي خلفي للاستوديو أمام ماكينة كاميرا تقليدية عتيقة، ويأتي المصور فينظم وقوفنا.. ثم يدخل رأسه في في الكاميرا .. ويلتقط لنا الصورة.

ونشعر نحن بزهو شديد لنجاحنا في تنفيذ المشروع الخطير ونترقب في لهفة شديدة تسلم الصورة أو الصور حسبما يسمح كرم المصور، وبعد انتظار لا يطول يقدم لنا صاحب الاستوديو صورة باهتة مبللة بالماء نبدو فيها جميعا كالأشباح، ومع ذلك فنحن سعد للغاية ومبتهجون.. لكن مشكلة أخرى تثار خلال العودة

المظفرة إلى شارع وهي: لمن يكون الحق في الاحتفاظ بهذه الصورة اليتيمة دون غيره من الصبية؟

ويشتد الجدل حول هذه النقطة المهمة.. لكن رئيس الشارع يحسمه بإشارة مقتضبة منه بأنه سيحتفظ بما لديه.. على أن يكون للجميع حق الاطلاع عليها من حين لآخر، فيخمد الجدل على الفور، ويكون ذلك آخر عهدنا برؤية هذه الصورة التاريخية!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

المثـل الأعلـى

يلفت مدرس اللغة الفرنسية بالمدرسة أنظارنا بأناقته ووسامته واتزانه.

وفي فترة تتعلق فيها القلوب الغضة بأحلام الأناقة والوسامة وإبهار الفتيات، يصبح هذا المدرس هو المثل الأعلى لنا في كل شيء، ابتداء من الذوق الرفيع في اختيار ربطة العنق الملائمة للجاكيت ذي المربعات الذي يرتديه، إلى المنديل الأحمر القاني الذي يتدلى من جيب الجاكيت الأعلى، إلى النظارة الشمسية الزرقاء التي تضفي على الوجه جمالاً ومهابة.. إلى الرشاقة في الحركة والحديث..، بالإضافة إلى ابتسامة وقور لا تفارق الوجه واتزان في القول والفعل يشي بالحكمة والعقل.. وهيبة طبيعية غير متكلفة، فأي مثال أحق بالتقليد من هذا المثال؟ وأي أمل يتطلع إليه فتى من أمثالنا أكثر من أن يصبح كهذا المدرس ذات يوم بعيد محط إعجاب الفتيات.. وموضع احترام الرجال؟

ويدفعنا الشغف به لمعرفة كل شيء عنه، فنعرف أنه من هؤلاء المدرسين الغرباء الذين تأتي بهم حركة التنقلات إلى مدينتنا الصغيرة، فيقيمون في مساكن مؤجرة، يتشارك في كل منها ثلاثة أو أربعة من المدرسين، ويتقاسمون قيمة الإيجار ونفقات المعيشة المشتركة، ويقضون نهارهم في المدرسة ومساءهم في المقهى، وقد يصابون أو يصاب بعضهم بآفات حياة العزوبية والغربة عن الأهل، فيدمنون بعض ألعاب القمار الصغيرة ليلاً.. أو يشترون خفية من محل الخمور الذي يملكه الخواجة جورج زجاجة من الخمر الرخيصة ليقضوا معها السهرة، فإذا طالت إقامتهم أو نسيتهم فيها حركة التنقلات لبعض الوقت، **عرفوا دروب المدينة الخفية، وتسللوا من حين لآخر إلى بيوت الهوى البعيدة عن الأنظار، أو زارتهم في مساكنهم خفية.. بعض نجماتها.**

ونتساءل نحن، إشفاقاً على المثل الأعلى من الاهتزاز: ترى هل تطاله بعض هذه الآفات التي نتناقل أخبارها المكتومة فيما بيننا وتنعكس بالسلب على نظرتنا لبعض مدرسينا؟

لكن الجواب المطمئن يجيء مؤكداً أن الرجل على خلاف كل زملائه يقيم بمفرده في مسكن نظيف مستقل يتحمل تكاليفه وحده، فيؤكد ذلك إلى جانب الأناقة والملابس العصرية، يسار الرجل وعدم اعتماده في حياته على مرتبه وحده.. ويتبرع البعض منا فيقول إنه وارث لأرض زراعية وحدائق للفواكه المثمرة، ويتبرع آخر فيؤكد عن ثقة، بأنه قد تلقى العلم في فرنسا على نفقة والديه، كما كان يفعل أبناء الأماجد في الزمن القديم.. وتضيف المعلومات الجديدة ملامح جديدة إلى الصورة، فتزيدنا افتتاناً بها وانبهاراً..

حتى لأسأل نفسي ذات يوم: من هو الإنسان الناجح في الحياة فأجيب على السؤال ومن وحي الإعجاب «بالمثال» المضيء إنه الإنسان الذي يجيد اختيار ألوان ملابسه ولون منديله وربطة عنقه، ويقيم في مسكن صغير نظيف بمفرده،

ويكتسي بالوقار والاتزان والجاذبية.. ويعرف الفرنسية وينطقها بمثل هذه اللهجة الساحرة التي يتميز بها المثال المحبوب!

وفي غمرة الإعجاب الطاغي بالرجل الرائع.. تهوي على رؤوسنا فجأة المطارق.. فيجري إلينا فتى من الرفاق حاملاً إلينا نبأ عجيباً ننكره حين نسمعه في البداية.. ونتهمه بالكذب والافتراء، لكنه ينجح في إقناعنا بمصاحبته للتحقق منه، ونرافقه إلى الشارع الذي يقيم فيه المثل الأعلى فنجد جمعاً من الكبار والصغار ينظرون إلى أعلى باهتمام وأسف. فنرفع الأبصار فنرى المثال المهيب يقف في شرفة مسكنه الصغير مرتدياً بيجامته المنزلية وقد تشعث شعره الغزير.. وزاغت نظراته.. وفاض الزبد من فمه وحول شفتيه.. وقد رفع يده اليمنى إلى أذنه كما يفعل قارىء القرآن، وانطلق في أذان متصل لا ينتهي حتى يبدأ من جديد وبأعلى صوت ممكن..

ونرقب المشهد الغريب في حزن وابتئاس، وتصك تعليقات المارة آذاننا بكلمات التحسر على الرجل الوقور الذي أصابته لوثة مفاجئة لا تعرف أسبابها.. ويقترح آخر استدعاء الإسعاف لحقنه بمهدىء، ونقله إلى المستشفى، ويطالب البعض بإبلاغ الشرطة، قبل أن ينتهي الموقف بمشهد مأساوي يلقى فيه الرجل بنفسه إلى الشارع.

فلا تخلو اللحظة من جاهل صغير يرى في الموقف ما يدعو للضحك بدلاً من الأسى.. ويحل الظلام وما زال الأذان المتصل مستمراً بغير من توقف.

ونرجع إلى شارعنا وقد استغرقتنا الأفكار الحزينة، ونسمع فيما بعد أن عدداً من زملاء الرجل قد اقتحموا عليه المسكن، وسيطروا عليه قبل أن يهوي من الشرفة إلى الأرض.

ويختفي المدرس الأنيق من المدينة للعلاج بالإسكندرية كما قيل لنا، ونترقب عودته ذات يوم إلى مدرستنا وقد استرد ثباته ووقاره السابقين، لكنه يغيب عن أنظارنا بعد ذلك إلى الأبد، فلا نراه مرة أخرى أو نسمع شيئاً عن مصيره.

وتتلقى صورة المثل الأعلى في الأذهان الصغيرة طعنة دامية يصعب البرء منها!

غير أن الأيام تمضي فتجرف في طريقها الأشجان والأحلام، وتسقط من الصورة ملامحها المأساوية.. فلا يبقى منها إلا المفارقة العجيبة بين المثال الجميل، وانهياره المفاجىء تحت وطأة ضغوط غير معلومة. ويغالي البعض منا، فيحيل الأمر كله إلى دعابة سخيفة، فيتنبأ لمن يرغب في النيل منه بأنه سوف يؤذن في الشرفة في القريب العاجل.

ويصبح تعبير الأذان في الشرفة في غير مواقيت الصلاة إشارة إلى الجنون وانهيار العقل دون مقدمات!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أحلام اليقظة

أحلم باليوم الذي أتخلص فيه من القيود وأستمتع بالحرية!

يداعبني الحلم في صحوي ونومي كلما اشتد إحساسي بالقهر والغليان.

أشكو إلى الله في مناجاتي بطش المدرسين بنا.. وكتمهم لأنفاسنا طوال الحصص.. فحتى فترة الراحة القصيرة بين حصة وأخرى تُلام على الاستجابة خلالها لطبيعتنا كأطفال في الحركة والصخب.. ويدخل إلينا مدرس الحصة التالية مكفهر الوجه، لينعى علينا سوء أخلاقنا إلينا وعدم التزامنا بما ينبغي للتلميذ النجيب الالتزام به، من الهدوء الكامل والجمود التام في المقعد إلى أن يحل موعد الدرس الجديد.

أتساءل بيني وبين نفسي عما أضّر الحياة من حركتنا داخل الفصل خلال فترة الراحة القصيرة، فلا أجد جواباً مقنعاً، ويظل الإحساس بالذنب، لعجزنا عن الوصول إلى الدرجة المأمولة من الأدب، مستمراً ومنغصاً ..يسألنا مدرس الدين الشيخ محمود عن نواقض الوضوء، فترتفع الأيدي تتبارى في طلب الانتباه وإثبات الذات.. وأرفع يدي على استحياء فيشير إليّ المدرس وأقف في ثقة وأقول: اللعب في التراب! وبدلاً من أن يعجب الشيخ المدرس بإجابتي «المنطقية» يسخر مني سخرية مريرة ويبشرني بمستقبل مظلم.. وأجلس وعقلي الصغير يتساءل: إذا لم يكن اللعب في التراب يفسد الوضوء فلماذا ينهانا عنه الكبار بصرامة

ثم أنزعج بشدة حين أرى مدرس الدين بعد أيام يزور أبي ليتحدث إليه في أمور عادية، لكنه ما أن يراني بالمصادفة حتى يشير إلى قائلا لأبي في دعابة سمجة: إنني لن أفلح في الدراسة! فأغتم للعبارة وأشعر بالخجل.. وأنتظر أن يحقق معي أبي في أسباب هذه «النبوءة» المتشائمة.. لكنه لدهشتي لا يلقى إلى الأمر بالاً ولا يحدثني فيه أبداً، وتمضي الأيام والأسابيع بطيئة وثقيلة وأؤدي امتحان آخر العام وصدى النذير الذي أنذرني به الشيخ محمود يتردد في أذني فيرجف له قلبي. وتظهر النتيجة فإذا بي من الناجحين بل ومن المتفوقين، وأشعر بشيء من «الشماتة» فيمن تنبأ لي بالفشل، وأتمنى لو أذهب إليه وأبلغه نجاحي وتفوقي بلهجة التحدي والفوز.. لكن هيهات أن أجد الشجاعة اللازمة لذلك، فتظل الغصة في النفس لا تجد من يداويها!

وأفرج عن مشاعري المكبوتة في الخيال الخصب الذي لا تحده الحدود، وأرى نفسي في حلم من أحلام اليقظة قد ذهبت إلى هذا المدرس ووقفت أمامه شامخاً، وأنهيت إليه خبر نجاحي وتفوقي، وقلت له بنفس اللهجة الساخرة التي انتقدني بها في حصته: أرأيت أني لست من الفاشلين؟

وأفعل ذلك في الخيال أكثر من مرة فأشعر بشيء من الارتياح.. لكن الحلم الأكبر يظل ملحاً على الدوام، وهو أن أتحرر من مذلة المدرسة الابتدائية، وأنتقل إلى

المدرسة الثانوية التي يروي لي عنها شقيقي الأكبر الأعاجيب، فالطلاب فيها كما يقول من «الرجال» وليسوا من الصغار مهدري الكرامة مثلنا، ولا يجرؤ مدرس مهما علا قدره على أن يمس طالباً بكلمة أو إشارة تسيء إليه، ناهيك عن لمسه باليد أو بالعصا.. ومن يخطىء منهم - أي من المدرسين - ويتجاوز حدوده مع أي طالب ينال جزاءه على الفور من الطالب باللكم والضرب المهين وجذب ربطة العنق.. ولا يكون عقاب الطالب بعد كل ذلك سوى الفصل لمدة يومين أو ثلاثة من المدرسة!

فأى أشاوس أبطال هؤلاء الطلاب الميامين.. وما أبعد الفارق بين عزهم.. وذلنا!

وكيف يجرؤ أحد على المساس بهم وهم الذين يهدرون كل يومين أو ثلاثة بصيحات الغضب والاحتجاج في مظاهرات صاخبة ضد الإنجليز المحتلين.. والحكومات الضعيفة التي تمالئهم.. ومتى يتحرر الأرقاء من أمثالنا من أسرهم، وينتقلون إلى دنيا الكرامة.. والأمان..

وتقوم ثورة يوليو قبل أن يتحقق الحلم العسير.. ويسقط الملك ويتغير العهد.. ويجيء اليوم الموعود، فأنتقل إلى السنة الأولى الثانوية.. وأستقبل حياة العزة والكرامة بقلب يخفق بالأمل.. وتمضي الأيام فلا أرى مدرساً «يرتجف» أمام جبروت طالب عملاق كما كان شقيقي يروي لي.. ولا أرى طالباً ينظر إلى مدرس نظرة نارية فيتجمد الدم في عروقه كما حكى لي.. وإنما أرى نفس «التطاول» من المدرسين.. ونفس القهر الذي عانينا منه في مدرسة الصغار.. وأرى الجميع يتملقون مدرسيهم، ويخشون عقابهم، كما كنا نفعل في مدرسة الصغار.. وأكتشف، بعد فوات الأوان، أن القهر هو القهر في مدارس الصغار والكبار على السواء وأنه لا كرامة لطالب ولا أمان إلا في الجامعة، كما يروي لنا الكبار العائدون إلى المدينة في إجازة الصيف من كلياتهم!

وتتطلع النفس إلى أمل جديد ترجو ألا يكون من أحلام اليقظة كما كان الأمل القديم في المدرسة الثانوية!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

موظف الحسابات

يلفت نظري بمظهره الرث ووجهه المحتقن وشفتيه المتورمتين من أثر الشراب.

أراه كل مساء يسير في الشارع الرئيسي للمدينة ورائحة الكحول تفوح منه وقد طبع وجهه بطابع الإدمان واصطبغت عيناه بحمرة قانية، أرقب بعطف رثاثة ملابسه وإهماله لمظهره، حتى لألحظ أن إحدى رجلي البنطلون الذي يرتديه أقصر من الأخرى بفارق محسوس، لكنه إنسان مسالم ومهذب للغاية.. نحييه حين نصادفه، فيرد تحيتنا بأدب وابتسام، بالرغم من نظرة الاستخفاف البادية في الوجوه، ويمضي في طريقه متجاوزاً عن سخرية الساخرين، ندرك رغم صغر السن أنه مخمور، ونراه وهو يشتري زجاجات الخمر الرخيصة من محل التاجر اليوناني افيمتو بالقرب بالسوق، أو من محل الخواجة جورج بالقرب من محطة السكة الحديد، كما نراه جالساً أمام هذا المحل أو ذاك عند الأصيل هائماً في دنياه الخاصة، يتطوع أصحاب النزعة العدوانية من الصغار بالاحتكاك به كأن يتسابق اثنان في الطريق، فيكاد أحدهما يدهمه خلال الجري عامداً، فيتفادى الرجل السقوط على الأرض بجهد كبير، ويقبل اعتذار الشياطين له بنفس صافية.. مؤثراً حسن الظن بهم وبالجميع، يلحظ أحد الكبار ما يجري فينهر الصغار المتحرشين، ويقول لهم: إنه رجل طيب ولولا آفة الخمر لكان من الصالحين!

لكن هيهات أن يقتنع الصغار بأن للمخمور حرمة ينبغي عدم المساس بها.

ونتقدم في العمر فنعرف أنه موظف الحسابات بالمدرسة الابتدائية، وأنه يؤدي عمله في الصباح على خير ما يرام.. ويتطوع لمساعدة الأهالي وإنهاء أوراق أبنائهم بسماحة، ويحبه زملاؤه لطيبته وانحصاره في ذاته، فلا يذكر أحداً بسوء. ولا يطعن في أحد، ثم يأتي إلى المدرسة التي يعمل بها ناظر جديد منقولاً من مدينة أخرى ويتسابق المدرسون والموظفون للدخول عليه وتحيته، ويلحظ سكرتير المدرسة أن موظف الحسابات يتثاقل عن الدخول إلى مكتب الناظر الجديد.. فيسأله متعجباً: ألا تحيي ناظرنا الجديد لكيلا يسيء تفسير تقاعسك عن التعرف عليه.. فيرد باستحياء بأنه سيدخل إليه بعد أن يخف الزحام حوله.. لكن سكرتير المدرسة يلح عليه بالدخول معه.. ليعرفه به.. ويستجيب كارهاً ويدخل إلى الناظر فيصافحه في خجل ذاكراً اسمه ووظيفته.. فما أن يراه الرجل حتى ينهض من وراء مكتبه ويعانقه وسط دهشة المدرسين والموظفين، ويرحب به بحرارة تشي بمودة قديمة، ويقول للحاضرين إنه سعيد بأن يجمعه القدر مرة أخرى مع زميل الدراسة القديم.. ويحكي لهم من أمره أنه كان «ألفة» الفصل عليه طوال سنوات الدراسة الابتدائية ولمدة عامين في المدرسة الثانوية قبل أن ينقطع عنها، ويقول لهم: إنه طالما رتع هو والأصدقاء في حديقة منزل هذا الزميل القديم، حيث كانت تقدم لهم الفطائر والأطعمة والمشروبات بسخاء ويقضون أجمل الأوقات في ضيافة زميلهم الثري.

ويذوب موظف الحسابات خجلا خلال الحديث، وينصرف شاكرا ومرتبكا، ويغادر المدرسون حجرة الناظر الجديد وهم يتعجبون لعدم إشارة موظف الحسابات هذا أبداً إلى سابق عزه القديم، ويتساءل أحدهم: كيف تدهور به الحال إلى هذا المستوى.. ويسأل آخر: ترى هل تعرض والده لنكبة اقتصادية أضاعت ثروته وعطلت مسيرة ابنه الدراسية، أم كانت الخمر هي بداية التدهور السريع على كل الجبهات؟

وتحرك القصة مياه الملل الراكدة لبعض الوقت، ثم يسيطر الفتور على الحياة بعد قليل، ويجد المتعاطفون في سابق العز القديم سبباً جديداً للإشفاق على الموظف البائس، ويحرص الناظر الجديد على حسن معاملته طوال فترة عمله بالمدرسة، لكنه ينقل إلى مدينة أخرى بعد عامين، ويأتى ناظر آخر فلا يرى في موظف الحسابات المدمن سوى مثال كريه يسيء إلى كرامة الموظف، ويقسو عليه بدعوى الحفاظ على هيبة الوظيفة، فتكفهر سماء الموظف البائس الوحيد.. ويزداد استغراقاً في الذهول والإدمان!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تم الكتاب بحمد الله)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

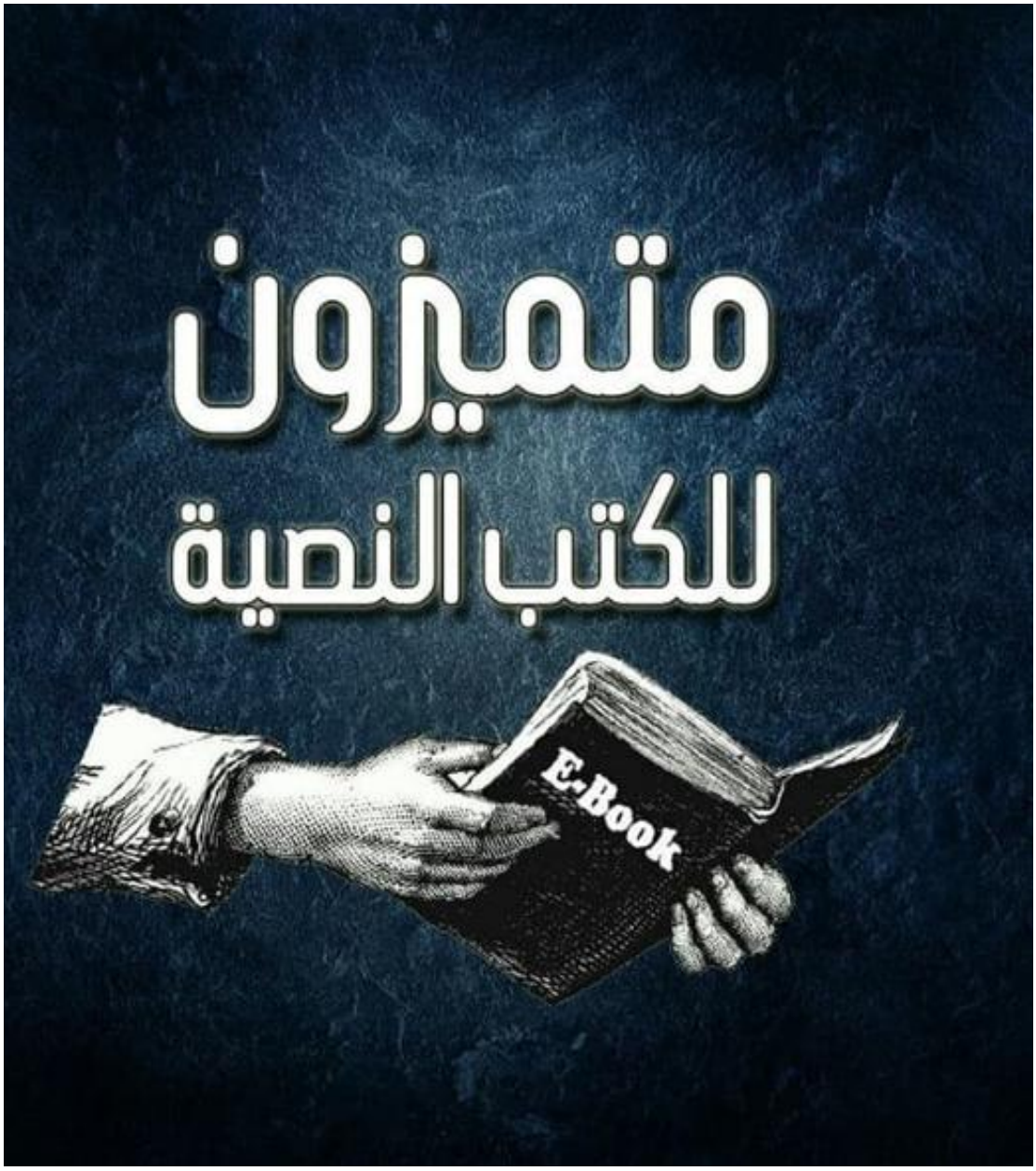
متميزون
للكتب النصية
E-Book

الفهرس:

حكايات شارعنا..

عن الكتاب..

الانحناء

أيام السعادة

الاحتفال

التواصل عن بعد

شيء من الألم

الانتقام

فليكن

الحب في شارعنا

الرئيس

المهرجان

الحرية

الحذاء

أحلام القوة

ذات الرداء الأحمر

موسم الابتهاج

اللون الأخضر

الغرباء

القدم العارية

العصر الذهبي

الصورة الغائمة

رسائل الغرام

انكسار الأحلام

في القطار

الباب

القصيرة

ثورة الغبار

لحظة الحسم

البحث عن السعادة

السؤال

النوم

التحدي

الكنز

المشـــــروع

المثل الأعلى

أحلام اليقظة

موظف الحسابات

الفهرس: